تجـــــــــــــــربة
لاجئ سياسي

الهادي بريك ـ مدنين ـ تونس

أكتوبر 2013 ـ محرم الحرام 1435

فهرس الكراس

1 ــ مقدمة وإهداء

2 ـ من هو صاحب الكراس

3 ـ تاريخ العلاقة مع العمل السياسي

4 ـ على درب الهجرة القسرية بحثا عن مربع آمن

5 ـ ألمانيا أرض اللجوء وساحة معركة جديدة

6 ـ الثورة ونداء العودة

7 ـ خلاصات وحصائل التجربة

مقدمة وإهداء

عندما تكون الكتابة بمناسبة ما يكون لها معنى إذ هي تلبي حاجة . وهذا الكراس إنما جاء لتلبية حاجة مزدوجة. حاجة ملحة لتدوين بعض ما شهدته تجربة الهجرة إذ لا تاريخ دون تدوين وكتابة في زمن الكتابة والتوثيق وحاجة أخرى لدى طالبة الحقوق التي جاءت تسعى لإستكمال نهمها العلمي. وعندما تلتقي الحاجات بين الناس يكون للتعاون بينهم معنى إذ الناس ـ كما قال بحق الشاعر الحكيم ـ بعضهم لبعض من عرب ومن عجم وإن لم يشعروا خدم.

لم أفاجأ كثيرا بإختيار طالبة الحقوق التونسية نبيلة بنت بومدين ضيف الله لهذا الموضوع الذي كان يعد من كبائر المحرمات في ليل الإستبداد الذي خيم على بلادنا الحبيبة ردحا من الزمن غير يسير. ذلك هو المنظور من الثورات عندما تندلع إذ ما ينبغي للناس عندها سوى تلبية أشواق ظلت دفينة حبيسة شأنها في ذلك شأن كثير منهم ممن كمم القمع أفواههم أو أغمد أقلامهم. ظل التونسيون مقالين كرها من السياسة إهتماما ومدارسة وحوارا وكتابة حتى قال بحق السياسي التونسي الشهير الأستاذ إبراهيم حيدر عام 1991 : ماتت السياسة. هي ما ماتت في الصدور التي لا يعلم خائنتها سواه سبحانه ولكن فرض الموت على أهلها. ماتت السياسة ليحل محلها القهر والكبت والسلب والنهب ولتكون قالة فرعون متجددة :" ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ". وعندما تموت السياسة لا بد لأضدادها أن تبرز ومن أضدادها التي نفق سوقها الشعوذات وقراءة الكف والطب الرعواني بدنيا ونفسيا وفنون الميوعة وكذا أكره جزء منا على مزاولة السياسة التي لا تعرف إلا الحزب الواحد والرأي الواحد والزعيم الواحد. موت السياسة بكلمة واحدة هو مظهر من مظاهر موت الحياة إذ السياسة هي الفن الراقي الذي يمتطي صهوته المصلحون أملا في تغيير موازين القوى بالتدريج والحكمة والرفق والتعاون حتى تقلع بلادنا من مربعات التخلف والتقهقر منافسة للرجل الأبيض في شمال الأرض.

كذلك أعد هذا الإختيار حكيما لهذا الموضوع من لدن طالبة الحقوق التونسية. هو موضوع متصل بالسياسة وبشؤون الدولة والحكم والأمر العام للناس وهو متصل بالمجاهدات والمغالبات التي يتقحمها الرجال فداء لأوطانهم وتجسيدا لمبادئهم وهو متصل بدرجة أولى بالإهتمامات الفكرية والثقافية والحضارية للإنسان ذلك الكائن المكرم المسؤول المستأمن المستخلف وما أكرم من لدن خالقه سبحانه إلا لسمو عقله ورجحان فكره.

لقد آن للثورة الفريدة ـ ثورة 17 ديسمبر 2010 ـ 14 جانفي 2011 ـ أن تلعق الجراحات الثخينة للتونسيين والتونسيات ومن تلك الجراحات إعمال مباضع الأقلام في الأيام الخاليات لسنوات الجمر الكالحة الطويلة لتروي لنا وللأجيال من بعدنا قصصا وحكايات تحمل إلينا عبرا ومواعظ ودروسا نستهدي بها فيما نستقبل من أزمنة إذ لا يبنى المستقبل إلا بإستيعاب ما حواه الماضي وحبلت به أيامه ولياليه. ولا أظن سوى أن هذا الجهد من لدن طالبة الحقوق التونسية مندرج ضمن ذلك السياق.

قد لا أوفي هذا الموضوع حقه من جانبي بالرغم من أن دغدغاته تلح علي منذ إنبلج فجر هذه الثورة التونسية أي ثورة الحرية والكرامة. بل لن أوفي ذلك قطعا لأسباب تخرج بنا الآن عن سياق ما نحن بصدده. ولكن ليكن هذا الكراس الصغير المتواضع مقدمة لسفر قابل بحوله سبحانه يرصد تجربتي مع اللجوء السياسي وما سبقه وليكن هذا الكراس مادة مرجعية لأطروحة طالبة الحقوق التونسية.

كتابة التاريخ وتدوينه مسؤولية حقيقية وجسيمة إذ هي شهادة والغاش فيها هو غاش في الشهادة على الناس عندما يتعلق الأمر بحرماتهم وحقوقهم بل إن الغاش في عرض التاريخ وحرمته هو الغاش الحقير وهو الكذاب المبير. وعندما يكون ذلك التاريخ مدونا لا مرتجلا فإن جريمة الكذب فيه تكون مضاعفة الحقارة وكبيرة الخساسة. يغفل المدون ويضطرب دون ريب إذ العصمة مدفونة مع صاحبها عليه الصلاة والسلام في القبر ذاته. ولكن الدس في التاريخ شيء آخر. تلك كلمات لا بد لي منها وأنا أتحمل مسؤولية هذا الكراس وما يحويه ولست سوى مستأمن من لدن طالبة الحقوق التونسية على رواية التاريخ بحسب ما شهدت ورأيت وليس من رأى كمن سمع كما قالت العرب بحق وصدق وعدل. هي إذن مسؤولية تعاقدية بيني وبينها في المقام الأول ثم تكون مسؤولية تعاقدية بيننا وبين من يعثر على هذه الكلمات.

لمن أهدي هذا الكراس.

فكرة إهداء المكتوبات والمدونات هي فكرة جميلة بحسبانها ترد بعض الفضل لأهله وليس لي أن أخالف ذلك التقليد مادام مقبولا لا ضير فيه.

قبل إهداء هذه الكلمات لا بد لي من رد الفضل الأول والأعظم لصاحبه سبحانه إذ هو الذي خلق فسوى وقدر فهدى وهو الذي علم الإنسان ما لم يعلم وهو الذي علم بالقلم فما بدا مني أو من غيري ممن تجشم الهجرة السياسية في سبيل وطنه من ثبات أو وفاء ما كان ليكون لولا فضله سبحانه ورحمته ورعايته وتسديده وتوفيقه وما يزعم غير ذلك لنفسه إلا شقي كنود.

أما أول من أهديهم هذا الكراس الصغير المتواضع فهو حبيب الأنام محمد عليه الصلاة والسلام ذلك النبي الأمي الذي كانت أميته معجزة مقصدها الأسنى هو أن نعض نحن بنواجذ الصبر والمجاهدة على مطالب العلم. وليس كثيرا أن أبدأ محمدا عليه الصلاة والسلام بإهدائي هذا وهو رائد مشروع محو الأمية في واقعة بدر الشهيرة وليس كثيرا ذلك على من جاء البشرية بكتاب أول كلمة فيه طرا مطلقا هي :" إقرأ ". ليس كثيرا ذلك على نبي قال في حديثه الصحيح عن عثمان عليه الرحمة والرضوان :" خيركم من تعلم القرآن وعلمه ".

ثم أثني بإهدائي هذا على والدي اللذين علماني وكلاهما أمي بالكامل. أليس هما اللذان جاعا لأشبع وظمآ لأسقى وعريا لأكسى وسهرا لأنام وخافا لآمن ونصبا لأهنأ. أليس هما اللذان كبرا وشاخا وهرما لأشب ويستد ساعدي. عندما يخرج متعلم من بيت صاحباه أميان بالكامل فلا تكون الشهامة إلا برد الفضل إليهما ولا بطولة في مروءة تزدري فضل الوالدين.

كما أهدي هذا الكراس الصغير المتواضع إلى من علمني يوما حرفا أدفع به عني ألم الجهل وأنياب الأمية المفترسة. عدد أولئك كثير منهم مؤدبون في الكتّاب ومنهم معلمون وأساتذة ومنهم مشايخ وعلماء وفقهاء ومفكرون ومنهم أقران ورفاق درب وزملاء ومنهم أصحاب بالجنب بالتعبير القرآني الكريم. لهم مني جميعا أطيب الكلام وأحر السلام. من أولئك جميعا أستأذن القارئ الكريم لأخص بعضا منهم ممن إنحفرت ذكراهم في الفؤاد إنحفارا منيعا تأبى عن الإنقلاع. من أولئك أخص أول معلم درسني في المدرسة وهو المرحوم المختار كسيسكي. معلم ليس كالمعلمين إلا في الملبس والمأكل والمشرب. معلم لم يتردد يوما واحد على إمتداد عامين كاملين وهو يقتني لنا في فترة الراحة القصيرة بين درسين في ضحى كل يوم حبات " البيس " التي يلهو بها معنا أما عندما نفرغ من درس ذلك اليوم فلا نبرح المدرسة حتى نجتمع على عدد من القصاع الضخام تعدها لنا زوجه الكريمة ممتلئة طعاما. أجل ورب الكعبة كان يحدث لنا ذلك كل يوم تقريبا. قولوا لي بربكم هل حباكم رب النعمة سبحانه بمعلم بمثل ما حباني. معلم يقتني لنا من نقوده أدوات اللهو ثم يلهو معنا وزوجه الكريمة تطهو لنا الطعام. لو كان الرجل حيا لقبلت منه جبينا حقه التقبيل ويدين حقهما الرفع والتقبيل كذلك. أدرك تماما أن الأجيال المتأخرة في هذه الأزمنة لا تفهم معنى هذا الكلام إذ أضحى الواحد منهم لا يستحي أن يدخن سيجارة مع معلمه أو يلهو معه بالورق في المقاهي. معلم آخر علمني فن الدعوة إلى الله والى الإسلام وإلى الخلق الطيب الكريم وهو الأخ الكريم والصديق العزيز فرحات لعبار مسؤول اليوم بالجزيرة مباشر القطرية. ذاك داعية بالسليقة وغيره يتعلمون فنون الدعوة لسنوات وبالكاد يضحى الواحد منهم داعية بالهواية أما السليقة فنداؤها بعيد. معلمون آخرون كثر أختم بإثنين منهما تعلمت منهما كثيرا جدا وهما الإمام القرضاوي نفعني الله سبحانه بعلمه وفقهه إمام الوسطية ومن إنتهت إليه ـ بتعبيري أنا ـ مشيخة الفقه المقاوم والعلم المعاصر والعرفان الذي يجمع ولا يفرق ويبني المؤسسات للتحرير العلمي في ما تعم به البلوى وثانيهم الشيخ محمد الغزالي ذلك الذي قد لسانه من بيان العرب الأولين وكأنما أوتي قبسا من قبسهم الثجاج. رجل روى عنه الإمام

القرضاوي أنه كتب كتابا في فضل الذكر ـ وهو كتاب معروف ـ فظل يكتب والدموع تمسح ما كتب حتى صنفه مرتين مرة ذهبت به الدموع ومرة إستقوى على دموعه فأخرج الكتاب.
وعندما يجمع الفقيه العالم بين الإخلاص في فؤاد يذوب حبا بين يدي الله سبحانه وفي حضرة شمائل عبده محمد عليه الصلاة والسلام وبين الفقه الراسخ المتجدد لا تلعثم فيه ولا تردد ولا تقليد فيه ولا إمعية وبين رشد يزاوج بين الواجب وبين الممكن وبين إستغناء عن دنيا الناس سيما من أهل الترف والجاه منهم .. عندما يجمع الفقيه العالم ذلك كله إليه فإنما هو ممن قال فيهم عليه الصلاة والسلام :" الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة". اللهم إرحم كل من تعلمت منهم يوما كلمة أو حرفا أو حكمة أو قيمة أخلاقية. لا أحصي أولئك وهم كثير كثير وحسبي الذي ذكرت منهم.

وأخيرا أهدي هذا العمل الصغير المتواضع إلى رفاق الدرب الطويل والشائك. درب المقاومة السلمية المدنية ضد دولة الحداثة المزعومة وما هي بحداثة ولكنها دكتاتورية عمياء مقنعة بالحداثة وما هي بحداثة ولكنها إستبداد قهري جبري طاغ مقنع بالحداثة. الحداثة في تونس ـ كما هو الحال في البلاد العربية والإسلامية ـ لا تكون إلا من بوابة الهوية العربية الإسلامية. أما الحداثة التابعة الذليلة فما هي بحداثة ولكنها مسخ عقدي وإستلاب حضاري. عرفت في ذلك الدرب المقاوم قبل الهجرة السياسية آلافا من الرجال والنساء وتعلمت منهم الذي تعلمت وعرفت على درب تلك الهجرة آلافا أخرى مؤلفة. ذلك هو رصيدي وليس هناك رصيد يضاهي رصيد معرفة الرجال عندما تشتد الأزمات وتحتدم المهلكات وتنصرم الحبال وتدلهم الطرقات. لكم يعجبني قول الشاعر الحكيم : من تهيب الرجال تهيبوه ... ومن حقر الرجال فلن يهابا.

أهدي هذا العمل إلى كل ثائر مقاوم لا تلين له قناة من غزة العزة رمز المقاومة حتى أهلنا في بورما المنسية التي تحرق فيها الأجسام الآدمية تعيد إلى الذاكرة واقعة الأخدود.

أهدي هذا العمل إلى الطالبة الحقوقية التونسية التي كان لها فضل المسارعة في تدوين الذي أدون هنا قبل أن تنخر هذه الذاكرة ناخرات الزمان.

ولله الأمر من قبل ومن بعد وهو ولي النعمة العظمى سبحانه.

من هو صاحب الكراس

لم يكن من غرضي إدراج هذه الفقرة لولا أن الطالبة الحقوقية لم تطلب مني ذلك وهي تفعل ذلك لأغراض تقتضيها أدبيات البحث الجامعي دون ريب. ليست العبرة بالفاعل في رأيي دوما ولكن العبرة هي في الفعل إذ الفاعل ميت لا محالة وهو لا بد يوما على آلة حدباء محمول كما قال الشاعر الحكيم ولكن الفعل باق ما بقيت الحياة. والعبر التي جاد بها الذكر الحكيم في الكتاب العزيز الهادي خلت كلها ـ ودون أي إستثناء تقريبا ـ من ذكر الفاعلين ولكنها حفلت بذكر أفعالهم ومن ذلك يستنبط العاقل الأريب دون ريب وبيسر شديد أن الموعظة في الفعل لا في الفاعل. ليس ذلك تأثما من ذكر النفس وكسبها كما يفعل بعض المتدينين من ذوي التدين المزيف وذلك بسبب أن الذكر هنا يحيط بما هو واقع من تحمل للمسؤوليات وليس هو ذكر للمناقب الأخلاقية مدحا فارغا.

صاحب الكراس هو :

الهادي بريك ـ من مواليد السادس من جوان 1955 ميلادية بمدنين.

متحصل على شهادة التقنية الإقتصادية للتصرف في دورة جوان 1974 بمدنين. وهي شعبة إقتصادية تركز على إختصاصي الإدارة والمحاسبة الماليتين بالمؤسسات العمومية وشبه العمومية والخاصة. شعبة إستحدثها النظام التعليمي في العهد البورقيبي. ثم وقع الإستغناء عنها من بعد ذلك. إشتغل صاحب الكراس بذلك التخصص لسنوات تربو عن العشر في بعض الشركات شبه الحكومية وفي الإدارة العمومية.

متزوج وأب لستة من الولد وعشرة من الحفدة.

كان ذات يوم هائما بالكتاب العزيز الهادي هياما بلغ الذروة حتى حفظه عن ظهر قلب لفرط الملازمة والعشق والتلاوة وكان ذلك في ربيع الحياة عنده أي في عام 1976 وكان قد تلقى علوم التلاوة قبل ذلك بسنوات قليلات عن المقرئ الشيخ محمد الهادي بالحاج رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

إنخرط في العمل التنظيمي لحركة النهضة التونسية بدء من 16 جوان 1976 بمدينة جرجيس وأصبح عضوا في الحركة في أواخر عام 1979 وظل يتحمل المسؤوليات فيها بدء من ديسمبر

1980 حيث جد في الحركة يوما ما كان يسمى عندنا إنكشاف 5 ديسمبر 1980. ظل كذلك مسؤولا حتى يومنا هذا في مختلف المواقع التنظيمية من مثل الكتابة العامة الجهوية بالتعبير المعاصر لولايتي مدنين وتطاوين سنوات 1985 و 1986 و 1987 ومن مثل عضوية المكتب التنفيذي للحركة في المهجر في سنوات 1995 و 1996 و 1997 ومن مثل عضوية مجلس الشورى للحركة منذ 1994 حتى يومنا هذا ومن مثل مسؤوليات أخرى كثيرة منها على سبيل الذكر لا الحصر رئيس الهيئة القضائية في الحركة وهي خطة دستورية إستحدثها مؤتمر 1995 ومنها كذلك عضوية مجالس مركزية كثيرة من مثل المجلس المركزي للدعوة والمجلس المركزي للإتصال وغيرهما في ثمانينيات القرن الميلادي المنصرم وغير ذلك مما أنسيته أو لا فائدة في ذكره.

كما كان صاحب الكراس مؤتمرا مشاركا في أغلب مؤتمرات الحركة بدء من مؤتمر 1986 حتى آخر مؤتمر أي المؤتمر التاسع للحركة المنعقد في جويلية 2012.

من الوثائق التي بحوزتي الآن مما يبين مرجعية بعض الأحكام الصادرة في حقي غيابيا وثيقة صادرة عن وزارة العدل وتحديدا من محكمة الإستئناف بمدنين تحت عدد 71 وهي شهادة في التمتع بالعفو التشريعي العام تبعا للمرسوم عدد 1 لسنة 2011 بتاريخ 19 فيفيري 2011 وذلك على خلفية حكم بالسجن لمدة عامين غيابيا سجنا نافذا في القضية عدد 6143 بتاريخ 26 فيفري 1992 من أجل الإنتماء لجمعية غير معترف بوجودها وعقد إجتماعات بدون رخصة. ووثائق أخرى ليست بحوزتي الآن وربما تحين الفرصة قريبا لتضاف إلى هذا الكراس.

أما المسؤوليات الدعوية والإعلامية وغيرها فيجدر الرجوع إليها عند الحديث عن تجربة المهجر وهي فقرة رئيسة في هذا الكراس.

تاريخ العلاقة مع العمل السياسي

ربما يكون من الأفيد لمساعدة طالبة الحقوق التونسية أن أحبس قلمي في هذا المحور عن الإطناب الإنشائي مركزا على أهم المحطات المتعلقة بالعمل السياسي وغيره من المناشط داخل حركة النهضة.

وقبل ذلك لا بد من كلمات قصيرات أجملها في أن صاحب هذا الكراس نشأ في بيت معارض لسياسات بورقيبة إذ كان أبوه ـ عليه رحمة الله سبحانه ـ يوسفيا مثل أغلب قبائل ورغمة بالجنوب التونسي في تلك الحقبة وإن أنسيت شيئا فلن أنسى أبدا البتة تلك الليلة من ليالي عام 1962 حيث إستيقظت من نومي مبكرا جدا وعلى غير عادتي وإذا بأمي عليها رحمة الله سبحانه تطهو نصيبا مما نسميه هنا " العيش " أي العصيدة بلهجة أخرى وكان ذلك حول موقد صغير في كوخنا الصغير المصنوع من القش وليس لنا غيره في تلك الأيام. فركت عيني من النوم فإذا بالرجل الذي عهدته دوما إلى جانب أبي في منزلنا جالسا على مقربة من ذلك الموقد بينما ينهمك أبي في تجهيز حمارنا. تناول الرجل ما تيسر له من ذلك الغذاء الدافئ في تلك الساعة المبكرة جدا من ذلك اليوم المحفور في ذاكرتي حتى اليوم ثم خرج مسرعا نحو الحمار المجهز وأبي يساعده على إمتطاء ظهره والطفل الصغير يرقب المشهد لا يلوي على شيء ولا يدري مما يدور حوله من شيء. شاهد الطفل الصغير كيف إنطلق الحمار بصاحبه يمخر عباب الأرض مخرا عجيبا وأبي يطرده من خلفه. شاهد ذلك حتى غاب الحمار بصاحبيه عن الأنظار ثم تولى الطفل الصغير إلى مثواه بين أحضان أمه ينام لا يلوي على شيء. كبر الطفل الصغير ثم أدرك أن الرجل لم يكن سوى أحد الذين حكم عليهم بورقيبة بالإعدام شنقا فيما كان يسميه بورقيبة دوما في خطبه مؤامرة الشرايطي عام 1962. كان الرجل فارا من " عدالة " بورقيبة وكان أبي هو الذي رتب له الفرار إلى القطر الليبي وإسم الرجل هو الحاج عبد الرحمان بن أحمد الرمة وقد توفى الله سبحانه أبطال هذا المشهد كله من لزهر الشرايطي إلى المعارض اليوسفي البارز الرمة ثم إلتحق به الوالد الكريم قبل زهاء عام من كتابة هذا الكراس. ذكريات أخرى كثيرة محفورة في ذاكرة هذا الطفل الصغير منها أنه كان يقف إلى جانب الطريق العام الرابط بين تونس و القاهرة وهو يصفق ويقول : يحيى إبن يوسف. فما إن ينتبه إليه أحد أفراد العائلة وهو على تلك الحال حتى يرجع به إلى البيت ولم يكن الطفل الصغير يدري أن ما يقوم به ببراءة الأطفال هو الموت الزؤام. هو الموت الذي حصد رقبة كثيرين منهم صديق الوالد ورفيق دربه على طريق المعارضة اليوسفية أي أحمد الفافي. لا أذكر شيئا عن هذا الأخير سوى أنه كان يردفني خلفه قبل إعتقاله على صهوة جواد ثم كان ذلك اليوم الذي نعي فيه ذلك المعارض

اليوسفي إلى إهله ولم يكن عمري يومها يتجاوز الخمس سنوات على أقصى تقدير. رأيت بعيني هاتين كيف جاءت سيارة الحرس الوطني خضراء اللون إلى منزل جارنا الفافي عليه رحمة الله سبحانه ثم إرتفع العويل في البيت. لم يكن ذلك ليوحي إلي بشيء بسبب صغر سني فلما كبرت أدركت المعركة التي كانت محتدمة في بيتنا وأبي هو أحد أبطالها وجيراننا كذلك. ولد لنا وليد جديد عام 1961 وهو شقيقي أحمد فسماه أبي بإسم الزعيم الجزائري القومي العروبي المعروف أي أحمد بن بلة ولم يكن أحد يعلم يومها سبب التسمية ولكن إسم إبن بلة كان يتردد في بيتنا بين والدي ورفاق دربه من اليوسفيين من مثل عبد الرحمان الرمة وأحمد الفافي وسعيد بالسعود وغيرهم ممن إنحفرت أسماءهم في ذاكرة طفل صغير شاءت له الأقدار أن يشب ويترعرع في بيت معارض سياسي. لم يكن والدي عليه رحمة الله سبحانه يخفي إعجابه بالشهيد صالح بن يوسف حتى عندما كبرت وشب عودي. هو الرجل الوحيد الذي إذا ذكر أثنى عليه خيرا بل كان يتعمد ذكر إسمه بحضرتي. تلك ذكريات كثيرة عنوانها سياسي بإمتياز شديد ولكن علماء النفس يؤكدون أن مثل ذلك في حياة طفل صغير يراكم في لاوعيه على حد تعبيرهم الشغف بالحياة السياسية وحب المعارضة. ذلك أمر لا أظن أن والدي عليه رحمة الله سبحانه يحبذه ولكن جرت أقدار الرحمان سبحانه بما يريد ربك وليس بما يريد هذا ولا ذاك.

المؤكد الذي لا أنساه أبدا البتة هو أن والدي عليه رحمة الله سبحانه كان حريصا على تعليمي شغوفا بالعلم إلى حدود مبالغ فيها جدا. لا أذكر أن أبي يحرضني على شيء ويحثني عليه مثل ما يفعل بي عندما يتعلق الأمر بطلب العلم. كان شديدا معي في المواظبة والمثابرة وحصد النتائج المرضية. كان شديدا معي شدة غير متناسبة حتى مع عمري. كان يذكرني دوما في سياق تحريضه أن أبناء عمومتنا من أولاد سي حسن ـ عائلة بالطيب ـ كانوا مقتنعين بجدوى العلم وصبروا عليه فحصدوا المناصب الحكومية وضمنوا مستقبلهم المادي على حد تعبيره بينما كان هو ـ أي أبي ـ من القانعين بإتباع أذناب الإبل وما في حكمها من الحيوانات الأهلية ولذلك نشأ أميا وظل أميا ولا يكاد يؤمن لأبنائه عيشهم إلا بشق الأنفس. كان ذلك الدرس هو الدرس المفضل الذي لا يضن به على إبنه الأكبر.

رباني عليه رحمة الله سبحانه على طلب العلم وحبه ونجح في ذلك. وكان ذلك مقصودا منه ولكنه رباني بلسان حاله كما يقال وليس بلسان مقاله على شيء آخر ولم يكن ذلك مقصودا منه في الأغلب والله أعلم وهو حب السياسة والمعارضة. هما سبيلان للتعليم : الثقافة القولية والثقافة العملية. ترسب شيء في لاوعيي فظل كامنا حتى أبرزته أقدار الرحمان سبحانه وأظهرته وترسب شيء آخر في وعيي وهو طلب العلم ولم يحتج إلى فرصة بروز.

كانت متابعة الناس من حولنا في تلك الأيام لقضية فلسطين متابعة يومية وجادة إذ كان أبي يحرص على الإستماع إلى نشرة الظهيرة لإذاعة البي بي سي البريطانية من لندن لأجل سماع

أخبار سارة عن القضية الأم في تلك الأيام أي قضية فلسطين. لم يكن لديه سوى مذياع صغير جدا مما يهرب إلينا في تلك الأيام من القطر الليبي. لسان الحال يقول يومها إذا فشلنا في مقاومة البورقيبية سيما بعد إغتيال زعيمنا بن يوسف عليه رحمة الله سبحانه في فرانكفورت الألمانية عام 1962 فلا أقل من أن نتابع القضية الأم أي قضية فلسطين. كانت العروبة والإسلام في تلك الأيام لا تعنيان إلا شيئا واحدا لا ينفصل. ولم يكن عدد الزعماء العرب الذين ينجذب إليهم الناس كبيرا إذ ليس منهم سوى أحمد بن بلة في الجزائر وجمال عبد الناصر في مصر وربما آخرون سرعان ما خبا ذكرهم.

لم يكن صاحب هذا الكراس متدينا بالمعنى الصحيح للتدين في أول صباه وبدار طفولته بل لم يكن من المصلين المواظبين أصلا. لم يكن يشعر بحلاوة الإيمان ولا بقيمة الصلاة عندما كان يواظب على ذلك تلميذا يافعا أو شابا مكتهلا. ولكنها عادة وتقليد بمثل ما هي كذلك عند أكثر المتدينين والمصلين. ليس هناك في تلك الأيام ممن يرتاد المساجد من شباب في عمره. المساجد يومها للذين يدلفون في فجر كل يوم جديد خطوة جديدة نحو القبر. لا تعني التوبة في تلك الأيام للشاب شيئا بل هي ضرورة للشيخ المسن. تلك مرحلة من مراحل الإنحطاط أظن أننا بصدد توديعها ولتكن إلى غير رجعة إن شاء الله تعالى.

وبمثل ذلك لم تكن هناك في تلك الأيام موبقات وكبائر ومهلكات وكان أقصى شيء يمكن أن يعد صاحبه مارقا وعائقا هو التدخين الذي كان بعض منا يقترفه سرا عن أبويه. ليس هناك في زماننا من يشرب الخمر ولم نكن نسمع بشيء إسمه المخدرات بالمرة. حتى العلاقة بالنساء كانت لا تحمل إلينا تقريبا إلا من خلال الشعر الجاهلي الذي كنا ندرسه في المرحلة الثانوية أي من خلال هيام مجنون ليلى بليلى وهيام العبسي بعبلة وهيام إبن أبي ربيعة بهند وهيام جميل صاحب بثينة ببثينة. ظهرت بعض مظاهر التهتك والإنحلال في بعض المعاهد الثانوية ولكنها كانت محدودة ولا تتجاوز جملة من الخطوط الحمر التي كان المجتمع يضعها لمراقبة الوضع الأخلاقي العام. ربما حمل الواحد منا حبا لهذه الفتاة أو تلك ولكن يبقى ذلك حبيس الصدور لا يفشيه ولا يعلنه. مقاييس الطيش فينا هي التدخين على كتمان وإستحياء من جهة والإنقطاع عن التعليم من جهة أخرى وما عدا ذلك فإن المناخ الأخلاقي العام يغلب عليه الطهر والبراءة. لم تتعولم الأرض يومها.

أبرز محطات العلاقة بحركة النهضة.

1 ـ إنخرطت في العمل التنظيمي للجماعة الإسلامية بتونس ـ وهو الإسم الأول لحركة النهضة ـ يوم 16 جوان 1976 بمدينة جرجيس وكنت يومها أشتغل متصرفا مساعدا بفرع الشركة التونسية للكهرباء والغاز. وفي أواخر عام 1979 أديت البيعة لأمير الجماعة يومها أي الشيخ راشد الغنوشي ـ كما كان يسمى كذلك في القانون الأساسي ـ لأصبح عضوا بالجماعة لأول مرة. وإنتدبت عضوا في المكتب المحلي بمدنين وفي إثر إنكشاف 5 ديسمبر 1980 إنتدبت للعمل بالمكتب الجهوي بمدنين وعضوا بالمجلس المركزي للإتصال الذي كان يديره علي لعريض يومها وخاصة بعد إستقرار الوضع الأمني من بعد إعتقالات ومحاكمات عام 1981 وكذلك عضوا في المجلس المركزي للدعوة الذي كان يقوده يومها الدكتور زياد الدولاتلي .

في جانفي 1983 جد إنكشاف آخر كان يسمى داخليا إنكشاف مكتب حمادي أي حمادي الجبالي الذي كان يرأس الحركة في غياب القيادة التاريخية السجينة ووقع ذكر إسمي يومها في التحقيقات البوليسية على أساس أني كنت عضوا في لجنة الإتصال المركزي فألتزمت التخفي لما علمت أن البوليس السياسي سأل عني ولما خفت السؤال عني باشرت عملي من جديد ولم تطل فترة التخفي أكثر من زهاء أسبوعين .

وفي عام 1985 أصبحت المسؤول الأول عن ولايتي مدنين وتطاوين أي كاتبا عاما جهويا بالتعبير المعاصر وكان التعبير المعتمد رسميا بحسب القانون الأساسي للحركة هو : عامل منطقة. وظللت كذلك حتى إعتقلت يوم الثلاثاء 24 مارس 1987 ضمن حملة بوليسية عاتية وحوكمت أمام محكمة أمن الدولة ـ محكمة غير دستورية ـ في العام ذاته ضمن قيادة الحركة بخمسة عشر عاما سجنا نافذا مع الأشغال الشاقة والمراقبة الإدارية من بعد الخروج من السجن وأطلق سراحي في نهاية عام 1988 من بعد الإنقلاب الذي قاده المخلوع بن علي على بورقيبة في 7 نوفمبر 1987.

2 ـ لم أستعد حقوقي المدنية والسياسية من بعد الخروج من السجن فوقع طردي من العمل وإلتجأت صحبة الطاهر تليش إلى تأسيس دكان صغير لبيع المواد الغذائية بسوق ليبيا بمدنين وواصلت عملي بالحركة نائبا للكاتب العام الجهوي آنذاك أحمد لعماري ومسؤولا سياسيا بالمنطقة إذ كنا في تلك الأيام نجري توافقات سياسية مع بعض الأطراف السياسية من مثل حركة م و د أي : مناضلين وطنيين ديمقراطيين وغيرهم من مكونات الساحة الفكرية والسياسية بالبلاد ولعل الجزء الأكبر من عملي من بعد الخروج من السجن هو التركيز على الجانب الدعوي من خلال الدروس والمحاضرات وتأطير المتعاطفين والأنصار من الشباب الذين

سرهم صمود الحركة في محاكمات 1987 ويرغبون في الإنضمام إلى صفوفها وما إلى ذلك من منابر العمل الشعبي الجماهيري سيما أن الحصار الأمني علينا في تلك الأيام كان يرصد التحرك ويدونه وينقله ولكنه لا يعوقه في الأعم الأغلب.

كما خضعت فعلا من بعد خروجي من السجن إلى مراقبة إدارية قاسية لصيقة لا تبرحني ولا تبرح بيتي صباح مساء وليل نهار وكان من تولى كبر ذلك عون معروف في الإستخبارات التابعة للحرس الوطني إسمه عمر الغويل الذي كان خلفي بسيارته الإدارية غير المسجلة إداريا بمثل ظلي لا يفارقني حتى لو إضطررت إلى حضور لقاء بعيد عن بيتنا وسلكت مسالك ريفية غير معبدة بدراجتي النارية كان خلفي. ولما كنت في حالة إختفاء في مدنين في بداية التسعينيات قرأت في جريدة الصباح خبر وفاته إثر إصابته بطلقة رصاص قاتلة إنطلقت خطأ من سلاح ناري كان يتعهده هو بنفسه أو يتعهده صاحبه. مضى كل ذلك وسيمضي ما نحن فيه الآن واليوم وسبحان من قضى أن كل من عليها فان ليبقى وجهه. مضى كل شيء وفات وسيفوت كل شيء ويمضي لا يلوي على شيء. لا أحمل ورب الكعبة في صدري شيئا ضد ذلك الرجل وغيره ولكني أخجل من ربي لهم إذ يسألهم يوم القيامة عما كانوا فاعلين. كيف مات ولم مات. غفر الله لنا ولهم جميعا.

3 ـ كما نشط قلمي في تلك الأيام إذ كتبت بعض المقالات الفكرية والسياسية في بعض المنابر التونسية من مثل جريدة الأيام والصباح الأسبوعي والصباح وحقائق والمغرب العربي وغيرها.

لم تكن إهتماماتنا في البداية سياسية بالمرة أي في بداية عشرية السبعينيات من القرن الميلادي المنصرم إنما كانت إهتمامات صحوة دينية إسلامية ناشئة تكافلت عوامل كثيرة داخلية وخارجية لميلادها إذ كان إهتمامنا الأكبر في تلك الأيام الأولى ـ أي السنوات الأولى وربما حتى الهجمة البورقيبية على إتحاد الشغل عام 1978 أي ما سمي الخميس الأسود ـ هو مقاومة المد الشيوعي في تونس ومما أذكره على سبيل المثال من ذلك أني كنت أشتغل عام 1976 في الشركة التونسية للكهرباء والغاز متصرفا مساعدا بفرع جرجيس الذي كان يشرف يومها على ولايات الجنوب بأسرها تقريبا وكنت أعود مساء الجمعة من كل أسبوع إلى بيتي في قرية حسي عمر من معتمدية مدنين وفاء بلقاء دوري حاشد وصارم مع أحد أبناء المنطقة ـ لا فائدة من ذكر إسمه الآن إذ علمت أنه تاب الله عليه فتاب إلى ربه سبحانه من اللوثة الشيوعية وأدعو له ولي ولكل مؤمن ومؤمنة بالثبات على الطراط المستقيم ـ وهل تدرون فيم هو ذاك اللقاء الذي لا يتخلف عنه أحد منا. إنه النقاش حول وجود الله سبحانه. أحشد أسلحتي من كتب منها على ما أذكر : إلى التي سألت أين الله والله والكون تقريبا لمفكر هندي وحوار مع الشيوعيين في أقبية السجون للدكتور المصري المرحوم عبد الحليم خفاجي وكتب المرحوم الدكتور مصطفى محمود الذي كان هو الآخر شيوعيا ماركسيا ملحدا ثم تاب الله عليه سبحانه فتاب وغيرها من الكتب. ويحشد رفيقي

كذلك حججه وبراهينه على عدم وجود الله سبحانه ونظل في مكان مرتفع من الأحواز القريبة جدا لقرية حسي عمر نقضي ساعات طويلة وقوفا كالديكة في حال نزاع مدمر وشرس وقاس. وظللنا هكذا على تلك الحال أسابيع طويلة فما أقنع واحد منا صاحبه بوجهة نظره ثم إفترقنا يائسين من بعضنا بعضا. اليوم ـ وقبل اليوم بسنوات طويلات ـ عندما أذكر ذلك أقول في نفسي : لم أكن أتمتع في تلك الأيام بكامل مداركي العقلية بالتأكيد إذ ما كان ينبغي لي أن أقضي أوقاتا طويلة في قضية فارغة مثل هذه. هي قضية فارغة عندي لأن وجوده سبحانه ـ وكذا سائر أسمائه وصفاته ـ لا تحتاج منا كل ذلك ولكنه جنون الشباب ومراهقة اليافعين.

4 ـ لمزيد من الإطلاع على إهتمامات الحركة في تلك الحقبات يمكن الرجوع إلى كراس كتبته في الغرض بعنوان : حركة النهضة من الدعوة إلى السلطة ومن المفترض أن يكون ذلك الكراس الآن تحت الطبع. وهو ملحق على كل حال من ملحقات هذا الكراس الذي نحن بصدده.

على درب الهجرة القسرية

كنا نتوقع ضربة بوليسية قاسية في أواخر عام 1989 وبدايات عام 1990 وذلك لأسباب معروفة منها فوز الحركة في إنتخابات 2 أبريل 1989 بنسب عالية جدا جعلت المخلوع بن علي لا يتسنى له تزييفها بالكامل إذ أسند للحركة تزويرا زهاء خمس مقاعد البرلمان وكان يومها يمهد لسن الخطة الخبيثة الماكرة المسماة من بعد ذلك خطة تجفيف المنابع وهي من إعداد ماسوني أمريكي صهيوني واضح بحسب ما أفاد ذلك الإعلامي العربي الشهير فهمي هويدي في بعض مقالاته الصحفية المنتظمة يومها إذ أفاد أنه تحصل على الخطة كاملة مسربة إليه عن طريق الخطإ وكان لا بد للمخلوع من إستبعاد الحركة الإسلامية في تونس من طريقه للظفر بالتأسيس لمشروعه بنجاح كبير دون عوائق ولم يكن مشروعه سوى مواصلة الخط البورقيبي ثقافيا أي تجذير عزلة البلاد عن هويتها العربية الإسلامية ولكن هذه المرة بعصا البوليس الثخينة سيما أن الظروف الدولية كانت سانحة لذلك إذ بدأ حلف وارسو يسقط في أواخر 1989 على يد قورباتشوف وبدأ الإستئساد الأمريكي والصهيوني من خلفه يكتسح الساحات متخلصا من خصم شرقي شيوعي عنيد وكان لا بد لذلك الإكتساح أن يرسي أذنابا عربية قوية تتخلص من المعارضات القومية والإسلامية الراديكالية سيما في قضيتي الهوية والمقاومة دعما للصمود الفلسطيني الأسطوري وليس للغرب ـ لمن يحسن فهم السياسة الدولية ـ من هدف أكبر من حماية الأمن الإسرائيلي بحسبانه رأس الدبابة التي تمهد الأرض العربية والإسلامية لمزيد من النهب والسلب والقهر ليظل الرجل الأبيض في شمال الأرض متقدما راقيا متحضرا ويظل الرجل الأسود في جنوبها متخلفا فقيرا عالة على سياسات الإستهلاك الغربية. تلك السياسة الدولية التي مهد لها إنزياح الدب الروسي بقوة كان لا بد لها من أذناب أقوياء ينفذونها وكان المخلوع بن علي واحدا من أولئك ولكن لا بد له من إزاحة العائق الأكبر في طريقه أي الحركة الإسلامية التي فشل بورقيبة مرتين في تدميرها مرة عام 1981 ومرة أخرى عام 1987.

وفعلا وقعت المواجهة من لدن المخلوع بن علي في أواخر عام 1990 وبدأت حملة الإعتقالات وكنت واحدا من الفارين الذين تحصنوا بالفرار تخفيا في البلاد لمدة تزيد عن عام بل ربما عن عام ونصف كامل وكانت الإعتقالات بالآلاف وبالجملة وعدد الفارين يناهز ذلك كذلك وبدأت الحملة الإستئصالية بحق في ظروف دولية مشجعة جدا منها فضلا عما ذكر آنفا الإذن للدبابات الفرنسية والجزائرية بسحق التجربة الديمقراطية الناشئة في الجزائر بسبب فوز حركة الفيس

الجزائرية ـ أي الجبهة الإسلامية للإنقاذ ـ بأغلب مقاعد المجالس البلدية المحلية وهي تتأهب لحصد مثل ذلك وأكثر منه في الإنتخابات التشريعية المزمع تنظيمها من بعد ذلك. كان لا بد للدب الصهيوني الأمريكي أن يوقف المد الإسلامي الذي بدأ يهدد الثقافة الغربية والمكاسب " الديمقراطية الحداثية المعاصرة " سيما أن ذلك المد لم تزده المقاومات البوليسية والسجون والمنافي إلا قوة وصمودا وتجذرا شعبيا.

ثم إضطررت إلى الفرار إلى القطر الليبي في أواخر عام 1992 حيث مكثت هناك زهاء شهرين وحاولت العبور إلى مالطا ثلاث مرات متتاليات وكان كل ذلك بجواز سفر مزيف ولكني أعدت إلى ليبيا صحبة عدد من التونسيين من النهضة ومن غيرها. وفي محاولة جديدة ناجحة عبرت إلى تركيا بحرا حيث مكثت هناك عاما كاملا وكنت مسؤولا بأمر من رئيس الحركة راشد الغنوشي المستقر يومها في لندن على زهاء مائة أو أكثر من التونسيين النهضويين الذين يبغون المنفى بسبب المطاردة البوليسية التي تتعقبهم في تونس والحملة البوليسية يومها كانت على أشدها لا تبقي ولا تذر لتنفيذ خطة تجفيف المنابع الشهيرة سيئة الذكر.

تجربة تركيا جديرة بالتدوين.

1 ـ قدمت مطلبا إلى المفوضية العليا للاجئين بأنقرة التركية فور وصولي إلى هناك ومنحت وثيقة رسمية تفيد بأني لاجئ سياسي في ذمة تلك المفوضية العليا التي تتعهد بحسب ما يجري العمل بإجراء مشاورات مع بعض البلدان الغربية التي تمنح اللجوء بغرض ترحيلي إلى هناك. المثير هنا ليس هو ذاك ولكن المثير في حياتي هو أن المسؤولة هناك وهي قاضية ومحامية فرنسية شهيرة إسمها السيدة " بيفلين " أضحت صديقة حقيقية في غضون ساعات وذلك بعد إتمام الإستجواب المطول جدا الذي أجرته لي لإختبار وضعي هل ينطبق عليه القانون سيما أني لا أملك وثيقة هوية إلا وثيقة جواز مزيف أم أني دعي من عدد كبير من الأدعياء الذين يزعمون أنهم ملاحقون سياسيا أو دينيا من لدن الإدارات الحكومية لبلدانهم الأصلية. بعد إستكمال الإستجواب قالت لي تلك المرأة الصديقة بالحرف الواحد : أنا معجبة جدا بلسانك الفرنسي القح بل إنك عندي فرنكفوني قح كما أنك أثبت بجدارة أنك فعلا عضو قيادي في حركة النهضة رغم أنك لا تمتلك أي شيء يثبت ذلك ماديا ولا حتى هوية خاصة بك. حزت ثقتها وظللنا أصدقاء حقا وظلت تساعد رفاق دربي بأمور قد لا يكون سردها هنا مثمرا بسبب بعض غرابتها أو عجابتها أو دعني أقول هي أسرار حقبة من حياتي تظل بيني وبينها حتى يوارينا

التراب وأغلب الظن أن تلك القاضية الفرنسية ماتت إذ ظللت أتابع أخبارها من ألمانيا لسنوات ثم غاب عني كل شيئ فجأة. والله أعلم.

2 ـ سبق القول أن رئيس الحركة كلفني بمسؤوليتي على إخواني اللاجئين هناك وعددنا يربو يومها عن المائة ودعم ذلك بمكانته العالية جدا لدى حزب الرفاه سيما رئيسه ومؤسسه المهندس نجم الدين أربكان عليه رحمة الله سبحانه حيث وثقني لديه ولدى حزبه الذي كان يومها يتوفر على أكبر كتلة برلمانية بزعامة الشيخ لطفي دوغان عليه رحمة الله سبحانه. وفر لنا المرحوم أربكان وحزبه كل شيء هناك من مأكل ومشرب ومسكن وأمن ثم أشفع ذلك بأن وفر لكل واحد منا ثمن التذكرة إلى أوربا بالطائرة وذلك عندما وقعت حكومة المخلوع بن علي مع الحكومة التركية يومها إتفاقية أمنية تقضي بتسليم " المجرمين " الفارين من كلا البلدين. أي تسلم تونس زهاء عشرة من أعضاء البي كي كي أي الحزب الكردستاني بزعامة عبد الله أوجلان وتسلم تركيا بمقتضى ذلك زهاء مائة من أعضاء ومناضلي حركة النهضة وكنت واحدا منهم بطبيعة الحال. لا زلت أحتفظ بتلك الوثيقة الأمنية مكتوبة باللغة الإنجليزية إلى يوم الناس هذا في بعض دفاتري المشتتة بين ألمانيا وتونس. تسلمت تلك المبالغ الهائلة من المرحوم أربكان بالدولار الأمريكي بنفسي ووزعتها على رفاق دربي.

3 ـ سرعان ما تناهى إلى إدارة الأمنيات التركية أني مسؤول عن زهاء مائة نهضوي مسجلين بالمفوضية العليا للاجئين سيما بعد إنكشاف أمر أحدنا يحمل هو الآخر جواز سفر مزيف وكان يهم بالخروج من مطار أنقرة وكان ذلك سببا كافيا لإيداعي الإقامة الجبرية في مدينة تبعد عن أنقرة بزهاء ساعة بالحافلة وإسمها مدينة تشنكري وذلك برفقة صديق الهجرة العزيز الأخ الكريم محسن الزمزمي الذي رغبني في اللغة التركية وكان ذلك سببا لتعلمي إياها لولا أن الأيام كرت علي مجددا لأنسى كثيرا منها. لم تحل عقوبة الإقامة الجبرية دوني ودون القيام على شؤون إخواني المقيمين هناك وظللت أتسلل إليهم وأرتب أمر خروجهم والعلاقة مع المرحوم أربكان وحزبه لفض المشاكل العالقة إداريا وأمنيا وغير ذلك وكانت الإدارة الأمنية قد بادرت إلى تسليم بعض منا إلى المخلوع بن علي وعددهم لا يزيد عن أربعة أو خمسة فيما أظن ثم جاء دوري لمغادرة التراب التركي خلسة بجواز سفر مزيف إلى الحدود السورية حيث فوجئت بتهديد آخر جدي لتسليمي إلى تونس سوى أن المال كان حائلا دون ذلك.

مما لا بد من ذكره هنا في التجربة التركية هو أنه لما ضاقت بنا السبل وطفقنا نبحث عن ملجإ آمن قدم إلينا عرض من سفارة إيران في أنقرة وهو عرض مرحب يعد بالخير وحسن الإستقبال وغير ذلك ولكن تريثنا طويلا ثم رفضنا العرض شاكرين. كنا بين مطرقة التسليم من لدن السلطات التركية إلى المخلوع بن علي تنفيذا للإتفاقية الأمنية وبين سندان الوقوع تحت إمرة إيران الشيعية الطائفية وفي النهاية آثرنا أن نمنح أنفسنا أياما أخرى لننظر في مآلنا وإلى أين

نتجه. كان قرارنا صائبا بفضله وحده سبحانه وإنما هو تسديد ليس إلا ولا بطولة لنا فيه وأقول ذلك بتواضع جم وحقيقي ورب الكعبة.

كما عرضت علينا سفارة السودان عرضا مماثلا ووعدت بجوازات سفر سودانية فلما تأخر الأمر لأيام قليلات عدلنا حتى عن التوجه نحو السودان وكنا نفعل ذلك بسبب أن الطريق إلى أروبا ليس متاحا لأسباب كثيرة.

أما الأتراك فقد عاملونا معاملة لا أريد التوغل فيها كثيرا خشية الإتهام بالمبالغة. إذ تزوج عدد منا من الإخوة العزاب بعض بناتهم وطاب العيش بينهم ولولا أن الظروف الأمنية كانت سيئة لما خرجنا من الأرض التركية إذ تمكن بعض منا حتى من الحصول على أعمال يستدر منها رزق الله سبحانه.

4 ـ ذلك ما تيسر لي الآن جمعه من ذاكرتي بعد أن مضى على حياتي هناك في تركيا عقدان كاملان ولكن المؤكد أن تجربة تركيا في حياتي لن تمحى ولن تندثر حتى تنفرد هذه السالفة كما يقال. تركيا بذكرياتها الحلوة والمرة هي أحب بلاد إلي طرا مطلقا بعد تونس وألمانيا. كذلك خلق الله سبحانه الإنسان أليفا يألف ويؤلف. سعدت بصداقة زهاء عشرة من خيرة الأصدقاء في تركيا منهم الأستاذ الجامعي اليوم " مهمت تشاكرتاش " و الأستاذ بكير والصديق العزيز حسن ديميريل وغيرهم كثير.

ألمانيا أرض اللجوء وساحة معركة جديدة

1 ـ بارحت داري بمنطقة حسي عمر من ولاية مدنين يوم الجمعة 30 نوفمبر 1990 في إثر وفود نبإ إلي من أحد جنود الخفاء العظام مفاده أن فجر ذلك اليوم شهد إعتقال رفيق الدرب أحمد لعماري وهو أحد ثلاثتنا الذين تزود بهم " سيناريو " الإعتقال الذي أعددناه تحسبا لمثل ذلك. حوكمت غيابيا مرات عديدة حتى وصلت الأحكام إلى ما يناهز عشرين سنة بالسجن النافذ منها ست سنوات لم أعلم بها إلا عند رجوعي إلى أرض الوطن من بعد الثورة إذ أخبرني عون الأمن في المطار ـ مطار النفيضة ـ أني محاكم بأحكام كثيرة منها حكم جديد بست سنوات سجنا نافذا عاما واحدا قبل الثورة بل أقل من ذلك. أخبرني بذلك وهو ينظر في الحاسوب المركوز أمامه في كل مرة أمثل فيها راجعا إلى بلادي من بعد الثورة بسبب أن إسمي مازال مسجلا ضمن قائمة الملاحقين بوليسيا.

2 ـ غاردت أرض الوطن لأول مرة في حياتي في أواخر 1992 في إتجاه القطر الليبي ثم تركيا التي سبق الحديث عنها وفي أواسط عام 1993 دخلت الأرض السورية لأمكث هناك نصف عام كامل وسوريا كذلك من أحب البلاد إلي إذ قدمت إليها كسير الساق في إثر حادث عرضي صغير قبيل خروجي من تركيا بأيام قليلات وتطوع أحد الأطباء هناك لإجراء ما يلزم نشدانا للعافية بالمجان وبمثله تطوع طبيب أسنان لإعادة غرس بعض أسناني التي فقدتها في تركيا وكان ذلك بالمجان كذلك والإنسان مفطور على حب من أحسن إليه سيما في ساعات العسر ولا أملك إلا أن أتوجه بالدعاء الضارع إلى ولي النعمة الأكبر سبحانه أن يمنّ بالعفو والرحمة على ذينك الطبيبين وكل من واسانا في أيام الهجرة العصيبة. وقديما قال الشاعر الحكيم : جزى الله الشدائد عنا كل خير إذ عرفت بها العدو من الصديق. قضيت نصف عام كامل في سوريا متنقلا بين مكتبات الحلبوني في العاصمة السورية دمشق إذ ليس لي هواية في الحياة أكثر من هواية الإطلاع وطلب العلم ومدارسته وبثه وإجراء الحوارات العلمية الهادئة العميقة حوله وحسبي أن ألقى ربي سبحانه طالب علم صغير يحبو على شطآن المعرفة إذ ليس لي مال أجاهد به في سبيله

سبحانه. الطباع السورية ـ طباع أهل الشام كما يقولون ـ من أشد ما أثار إعجابي. الحياة هناك كانت في تلك الأيام يسيرة ودروس العلم الموثق لا يكاد يخلو منها مسجد واحد من مساجد دمشق العظيمة. علم الأمن السوري بطبيعة الحال بقدومنا ولكن الأوضاع السياسية يومها كانت سانحة لبقائنا هناك لاجئين مسالمين لا نشاط لنا. لا أحمل عن سوريا إلا الذكرى الطيبة وأسأله سبحانه أن يفك أسرها من الحرب الوهيدة التي سقطت فيها أو أسقطت فيها لعل البسمة تعود ـ وستعود يوما بإذنه سبحانه ـ إلى أهل سوريا الكرماء الشهماء الطيبين.

3 ـ وفي الفاتح من رمضان المعظم من عام 1994 ميلادية صعدت إلى الطائرة لأول مرة في حياتي في إتجاه فيينا العاصمة النمساوية التي كانت حتى ذلك الوقت لا تطلب من التونسيين تأشيرة عبور وكان ذلك برفقة صديق آخر من أصدقاء الهجرة القسرية وهو الأخ الكريم عبد الهادي التيمومي من حي التضامن بالعاصمة التونسية. كان الطيران لأول مرة حدثا في الحياة. كان الشعور كله مختلفا إذ أصعد الطائرة لأول مرة في الحياة وأطأ بقدمي هاتين الأرض الأروبية كذلك لأول مرة وأحس بمرارة وداع الأهل والأبناء والوطن كلما توغلت في إتجاه الشمال. سبحان مقلب الليل والنهار. القلب يمتلئ خفقانا. هل أصادف صعوبات أخرى عند نزولنا إلى مطار روما بإيطاليا حيث يتوجب علينا إمضاء سبع ساعات كاملات من الراحة وهل أصادف مشاكل أخرى عند نزولنا في مطار العاصمة النمساوية. لو تركت المجال لهذا القلم فسيحا لما كف عن بث شجونه ولكن كثيرا من الكلام هنا قد يثقل المسؤولية على طالبة الحقوق التونسية ودوري هو مساعدتها لا إثقال كاهلها ولكن عسى أن يقع هذا الكراس الصغير المتواضع بين أيدي قراء آخرين وقد يفيدون منه عبرة وقد يقع علي منه أجر وثواب. وقد أدون به صفحات من تاريخ البلاد ومآرب أخرى الله وحده يعلم مستقرها ومثواها.

4 ـ مر كل شيء بسلام في روما وبمثله كذلك في فيينا. كنت أتقدم هناك إلى الموظفة المسؤولة عن فحص جوازات السفر والقلب يزدادا خفقانا. لم أصدق من أمري شيئا والموظفة لا تعير جوازي أي إهتمام وهي ترنو إلى المسافر اللاحق وكأن شيئا لم يكن. لو علمت بخفقان فؤادي لأوقفتني حتما ولكن أقدار الرحمان غلابة غلابة غلابة ولكن أكثر الناس لا يعلمون حقا وصدقا وعدلا. لكم صدق في المثل العربي : يكاد المريب يقول خذوني. أجل كدت أقول لموظفة الأمن النمساوية أنا محمول في بلادي على أني إرهابي من طراز رفيع جدا ومبحوث عني بجد ومثابرة ولا بد من القبض علي. ألم يبلغ الهوس بجلاوزة المخلوع بن علي أن ذهبوا إلى العراف الشهير في مدنين ـ جهة بني خداش ـ العدواني ليستوضحوا منه الأمر عني وعن الطاهر تليش. أجل وقع ذلك من روايات موثقة ورب الكعبة. الرجل لم يكن عرافا كما كانوا يتوهمون ولكنه على جانب من الصلاح والله أعلم إذ أطردهم بقوة لا هوادة فيها. جاء إليه ثلاثة رجال منهم المحقق المعروف هبهب وهو الذي إعتقلني عام 1987 من التفقدية الجهوية للشغل بمدنين. بعدما

رجعت لأول مرة إلى مدنين أي من بعد الثورة وتحديدا يوم الفاتح من أبريل 2011 روى لي الناس روايات لا يكاد يصدقها عقل عن الهوس الجنوني الذي يتخبط فيه أولئك الجند من جند المخلوع. لا يسمح المجال هنا لقص بعض من رواياتهم ولعل سفرا آخر يحوي بعضا من ذلك إن كان في ذلك بعض الإفادة للقراء أو للتاريخ.

5 ـ خرجت من مطار فيينا وأنا ألفتت يمنة ويسرة وإلى الخلف إذ كنت أنتظر من يتعقبني ليعتقلني. لم أكن أتصور أن بدار الحياة في أروبا بذلك اليسر. ولم أكن أعرف أني في أرض أمن إذ حتى لو قبض علي فإنه يكفي أن أقول بأني لاجئ سياسي لينتهي كل شيء. هو نظام تعليمي كامل وثقافة بعضها قولي وبعضها عملي تشربناهما ليصنعان منا شيئا آخر غير ما كان يجب أن يكون. تلقاني أحد الإخوة المكلفين بإستقبالنا هناك وظللنا هناك أسبوعا كاملا ترتبت فيها أوضاع خروجنا من النمسا إلى ألمانيا وفي الحدود وقعت واقعة أخرى كذلك.

6 ـ كان المكلف بنا مطالبا بسبب ما تلقاه من مال بمرافقتنا بسيارته حتى مدينة ميونيخ الألمانية وهي في الجنوب الشرقي للبلاد وبها في تلك الأيام زهاء مائة نهضوي من الفارين من جحيم المخلوع بن علي وسياسة تجفيف المنابع. ولكن الرجل تركنا في مدينة حدودية مع النمسا إسمها " روزنهايم " وهي مدينة مراقبة من الأمن الألماني بشدة وقوة وذلك ضمن سياسة أروبية هي سياسة مقاومة الهجرة المسماة عندهم هجرة غير شرعية إذ ما إن صعدنا القطار حتى قدم إلينا بعض الأعوان من الأمن الألماني يطالبوننا بجواز السفر ويحدثوننا باللغة الإنكليزية وأدركنا أننا وقعنا فريسة جديدة في بطن الأمن الألماني وظللنا نتجاهل اللغة الأنجليزية كما نتظاهر بالبحث والتفتيش عن وثائق الهوية ظنا منا أن الأمر يمكن أن يمر كما يمر هنا عندنا وبعد لأي أدركت الشرطة الألمانية أننا لا نمتلك وثائق هوية فظلت بجوارنا حتى وصلنا ميونيخ وعندها وقع إقتيادنا بلطف وأدب إلى مخفر الشرطة ثم إلى السجن الذي مكثنا فيه نصف شهر كامل ولم يكن أي شيء في تلك الأيام لا يريحنا إلا نوع الطعام الألماني الأبيض الذي لم نألفه سيما أننا في شهر رمضان المعظم وما إن أدرك الحراس أننا مسلمون وصائمون حتى بادروا بإعادة توزيع الطعام علينا تناسبا مع وجبات الأكل في ذلك الشهر العظيم. كانت تجربة السجن في ألمانيا على قلة أيامه تجربة أخرى مثيرة. وفي أول أيام عيد الفطر المبارك وقع إطلاق سراحنا في إتجاه المحامي الذي تعهد بأمرنا ودخلت ألمانيا لأول مرة وكان ذلك يوم 16 فيفري 1994. تقدمت بمطلب لجوء سياسي وأرسلت إلى مدينة شرقية إسمها " بيرويط " وهناك خضعت إلى إستجواب أمني عميق ومطول لإثبات أني نهضوي حقا وليس دعيا أنتحل صفة اللجوء السياسي لمكاسب مالية أو غير ذلك. وكان كذلك للتزكية الكتابية التي كان يسندها الشيخ راشد الغنوشي لملف طلب اللجوء دور سيما عندما تنعدم الهوية بمثل ما هو الحال عندي وعند أكثر طالبي اللجوء ووافقت الإدارة الألمانية على منحي اللجوء السياسي بعد أسابيع قليلة من ذلك الإستجواب المطول وذلك بناء على الفصل 16 من القانون الأساسي الألماني من جهة ومن جهة أخرى بناء على إتفاقية جنيف الشهيرة لعام 1952 الخاصة بإيواء اللاجئين المطاردين بسبب

دينهم أو لونهم أو عرقهم أو لسانهم أو أي مظهر آخر من مظاهر التمييز التي لا تطيقها لا الأديان السماوية ولا القوانين الوضعية. جاءت تلك الإتفاقية المعروفة بذلك الإسم لتسوية أوضاع الحرب العالمية الثانية وإستحقاقاتها الإنسانية وبخاصة لإستيعاب الشرقيين الأروبيين الذين طحنتهم التجربة الشيوعية المغالية المتطرفة بين سنوات 1917 و 1945.وشاءت أقدار الرحمان سبحانه ليكون الجزء الأكبر من بعد ذلك ممن تستوعبهم تلك الإتفاقية الدولية هم من أبناء الجنوب ومن العرب والمسلمين بصفة خاصة.

معركة جديدة في ألمانيا وهذه أبرز معالمها :

1 ـ واصلت العمل هناك ضمن هياكل الحركة بقصد إعادة تأسيسها بما يخفف من حدة المعاناة المستعرة ضد زهاء مائة ألف عائلة تونسية إستهدفتها الملاحقات البوليسية بدء من عام 1991 حتى أواخر 1997 حيث ظل الحريق هناك ملتهبا يلتقم المعارضين والأحرار يستوي في ذلك أن ينتموا للنهضة أو يتعاطفوا معها أو مع أرملة فقيد أو زوج منفي أو لا علاقة لهم بذلك مطلقا إلا علاقة دينية تعبر عن نفسها بإلتزام الصلاة وغير ذلك من حالكات سنوات الجمر اللاظية الطويلة.

2 ـ عقد النهضويون الفارون إلى أروبا عام 1992 ندوة موسعة بغرض النظر في الوضع التنظيمي والدستوري للحركة التي أتت دبابات المخلوع لأول مرة على أجهزتها التنظيمية كلها فلم يعد للحركة أي وجود هيكلي ولأول مرة منذ تأسيسها قانونيا في صائفة 1979 بضاحية منوبة بالعاصمة التونسية.

3 ـ إنطلق العمل من بعد ذلك على مستويات ثلاثة هي : إنجاز مؤتمر للحركة يعيد لها وضعها التنظيمي والهيكلي من ناحية ومباشرة العمل الإغاثي لمساعدة العائلات التي طالها الطغيان على تأمين القدر الأدنى من لقمة العيش الكريمة سيما للتلاميذ والطلبة والمرضى وغيرهم من ناحية ثانية ومن ناحية ثالثة مباشرة العمل الحقوقي إستدرارا للإهتمام الدولي أن يرفع الغطاء السياسي والحقوقي الذي ظل يتمتع به نظام المخلوع وهو يدك بدباباته كل صوت حر وقلم وطني أصيل. إنطلقنا في ذلك العمل متعاونين متكافلين سيما أن أوضاعنا الإدارية في المهاجر بدأت بالتسوية وبوتيرة في المعدل العام مقبولة إذ أن ذلك ييسر التنقلات والإتصالات.

3 ـ أنجز أول مؤتمر للحركة بالمهجر وكان ذلك في شهر مارس من عام 1995 وكان مؤتمرا مضمونيا وإنتخابيا في الآن ذاته وإنبثقت عنه المؤسسات الدستورية المعروفة من مثل مجلس الشورى والمكتب التنفيذي ورئاسة الحركة وهيئة قضائية وغير ذلك.

4 ـ وكانت الحركة قد واصلت في عملها التقليدي الكبير أي إنجاز التقويمات الموسمية لمراجعة الكسب ومحاسبة المسؤولين وغير ذلك مما تقتضيه المراجعات والتقويمات الداخلية التي لا بد أن يخضع لها كل كائن حي لتصحيح مساره. كما عملت الحركة على لم شملها في المهاجر في معمعة محنة قاسية إستئصالية قلما تعرضت لها حركة أو حزب في التاريخ البشري كله ولا أظن أن ذلك من باب المبالغة ولكنها الحقيقة التي تحتاج إلى شهادات وإثباتات وأقلام وكراسات وكتب وهي قادمة بإذنه سبحانه. صدر الجزء الأكبر من تلك المراجعات ضمن كراسات وكتب منشورة وأكثرها موقع بإسم رئيس الحركة الشيخ الغنوشي.

5 ـ إشتغلت بادئ ذي بدء في حقل التنظيف في ألمانيا وذلك لمدة تربو عن ست سنوات وواكبت أعمال الحركة كما بدأت في الكتابة وخاصة في المنشورات الداخلية والخارجية التي تصدرها الحركة من مثل تونس الشهيدة وصوت تونس والمراسلة الداخلية وغيرها وكذلك في مجلة شهيرة إسمها الجرأة باللغتين في ذلك الوقت وليست هي من إصدار الحركة ولكن صاحبها معارض عنيد ومعروف وإسمه بقة.

6 ـ إشتدت الحملات ضد المخلوع بن علي في الصحافة الدولية والأروبية وخاصة مع بزوغ فجر الفضائيات وخاصة الجزيرة القطرية والإعلام الإلكتروني والفايس بوك وغيرها من الوسائل التي عملت بجد على الإطاحة بجدار برلين الذي أحاط به المخلوع نفسه أن تنكشف إختراقاته البشعة والمهينة لحقوق الإنسان والحقيقة أن منظمات دولية عتيدة وكبيرة وذات مصداقية تبنت قضية الحريات في البلاد وساعدتنا كثيرا على فضح الممارسة المتخلفة للمخلوع سيما فيما يتعلق بحرمات الناس وذلك من مثل " أمنستي إنترنشيونال " و كذلك " هيومان وورد ووتش " وغيرهما.

7 ـ وفي تتويج تلك الحملات التي لم يصمد في وجهها نظام المخلوع إضطر إلى منح عائلاتنا حقوقهم في جواز السفر وبذلك تمكنت العائلات من الإلتحاق بنا وكانت أول إمرأة على ما أظن تلتحق بزوجها هي السجينة السياسية السابقة سميرة بن صالح زوج رفيق دربي عبد الهادي التيمومي وكان ذلك في أواخر 1997 على ما أظن وكان أول الغيث قطر كما يقال.

8 ـ إلتحقت بي عائلتي في 17 مارس 1998 أي زوجتي وأبنائي الستة وبدأت حياة جديدة الغريب فيها أن الشوق إلى تونس لم يزده ذلك الحدث إلا تعمقا وترسخا بل إتقادا ولهيبا. حب الأوطان من صميم الإيمان حقا. حب الوطن فطرة بشرية لا تقاوم ولذلك يعبث العاملون على نزع الجنسيات من المعارضين عبثا مريعا إذ يظنون أن الجنسية وثيقة توهب للمرضي عنه وتغتصب من المسخوط عنه. ذلك عبث معبوث بل هو لهو الأطفال عندما يشيدون بالرمال على شطآن الأنهار والبحار قصورا لتأتي الرياح فتحطمها وتغدو أثرا من بعد عين. الشوق إلى الأوطان حقيقة من الحقائق التي لا توفيها الأقلام ولا الألسنة حقا ولا حبة خردل من حقها ولكنها

حديث أرواح وقلوب وأفئدة. من أراد أن يزداد شوقه إلى تونس فليغب عنها ردحا من الزمن أما من هجر عنها قسرا فإن الشوق إليها يغدو محفورا في الفؤاد لا ينحبس له دمع ولا يفتر ولا يسأم.

9 ـ كما تركز نشاطي في المهجر على عدد آخر من الأعمال منها الدعوة سيما في بلد مسيحي بالضرورة إذ ظللت إمام جمعة في الأعم الأغلب حتى إلتزمت مسجدا واحدا بعينه وذلك عام 1998 إذ إنتقلت من مدينة ميونيخ الجنوبية إلى مدينة أوبرهاوزن الوسطية الغربية المحاذية لهولندا في منطقة شمال نهر الراين وتحديدا في منطقة تسمى : الرور. ساهمت في تأسيس هيئة العلماء والدعاة بألمانيا وكانت في البداية برئاسة الشيخ أحمد هليل وهو مصري معروف كما ساهمت في تأسيس التجمع الأوروبي للأئمة والمرشدين في مدينة بروكسل البلجيكية وآلت رئاسة التجمع إلى الصديق الليبي الشيخ الدكتور مبروك الونيس وظللت عضوا في مجلس الأمناء الذي هو أعلى سلطة بين مؤتمرين في ذلك التجمع. كما إشتغلت بإلقاء المحاضرات والدروس وإدارة الحوارات في الحقل الشرعي والديني والإسلامي على إمتداد تلك الفترة التي إقتطعت من حياتي زهاء ربع قرن كامل. ثم إستقر بي المقام إلى إمامة مسجد الرحمة بمدينة دنسلاكن الألمانية أي إمامة جمعة وخمس وغير ذلك مما جعلني في تواصل شبه مستمر مع الألمان المسلمين ومع غيرهم ممن يريد الإطلاع على الإسلام أوالتعرف عليه أو الإستفسار عنه أو الدخول فيه وغير ذلك مما تقتضيه إمامة مسجد في ألمانيا من جهود إجتماعية مساهمة في الهدف المركزي للوجود الإسلامي في أروبا أي : حفظ الهوية الإسلامية للناشئة أن يندمجوا في الثقافة الألمانية إندماجا سلبيا مائعا.

مما سيظل كذلك محفورا في الذاكرة أني سألت زهاء عشرين بل أزيد من الألمان المعتنقين للإسلام في مسجدنا وعلى يدي بفضله وحده سبحانه. سألتهم جميعا منفردين من بعد النطق بالشهادتين في الأعم الأغلب أو في مناسبات أخرى عن أكبر شيء يدفعهم إلى إعتناق الإسلام وهم في بحبوحة من رغد العيش لا يشكون شيئا مما نشكو منه في بلداننا العربية والإسلامية من كبت أو حرمان مادي أو غير ذلك. كانت الحصيلة ورب الكعبة قاسية علي وكانزة فيّ لجبال من الأمل في هذا الدين العظيم. كان الجواب واحدا ورب الكعبة كأنما عقدوا من قبل ذلك إجتماعا وتواضعوا ـ أي إتفقوا ـ على كلمة واحدة لا يبرحونها. كان الجواب واحدا منهم جميعا رغم أني سألتهم منفردين. كان الجواب هو : كنت قبل الإسلام لا أشعر بمعنى إيجابي للحياة رغم أني أملك كل شيء أما بعد الإسلام فقد شعرت أن لحياتي معنى وعبرة. بكيت لما سمعت ذلك الجواب لأول مرة من فتاة ألمانية إسمها " زازكيا " وهي طالبة أبت إلا الإسلام رغم معارضة شديدة من لدن أبويها كلاهما لا أحدهما فحسب. بكيت وقلت في نفسي : يا هادي هل شعرت مع إسلامك وإيمانك يوما واحدا قبل هذا اليوم بأن لحياتك معنى. تعلم يا هادي من نساء الألمان وبناتهم ممن شرح الله صدورهن للإسلام. أجل. تعلم ولا يشغب عليك الكبر الشيطاني اللئيم. هو درس آخر إجتنيته من هجرتي. وما أكثر الدورس لو يتسع هذا الكراس الصغير وتأذن لي الطالبة الحقوقية لتدوين ما أكاد أنساه.

10 ـ ولحفظ ذلك الهدف الأسمى من وجودنا هناك ـ أي التعاون لأجل حفظ الهوية العربية الإسلامية لناشئتنا قدر الإمكان مع العمل على مشاركة المجتمع الألماني فيما هو مشترك بيننا دفعا للإندماج السلبي المذيب ودفعا كذلك للإغتراب المهمش ـ ظللنا ننظم المخيمات الصيفية والدورات التكوينية وغير ذلك من الأنشطة سيما تحت سقف إتحاد المنظمات الإسلامية بأروبا وتعاونا مع الإخوة الأتراك الذين يقدرون بزهاء ثلثي الوجود الإسلامي في ألمانيا وحدها.

11 ـ كما واصلت الكتابة ومن ذلك مساهمتي في إنشاء موقع إلكتروني حاز في تلك السنوات إعجاب المهتمين وإسمه الحوار.نت كما كنت من المسؤولين عن ذلك الموقع الذي ضمنته الجزء الأكبر ـ أو الكبير على الأصح ـ من كتاباتي. وكذلك ساهمت في الكتابة في مواقع إلكترونية أخرى كثيرة منها تونس نيوز وهي أول موقع إلكتروني تونسي مقاوم من المهجر وظل ذكره يتوهج ويقبل عليه التونسيون بطريقة عسيرة بسبب شرطة الإنترنت التي أنشأها المخلوع لمحاربة كل صوت معارض. ومن تلك المواقع كذلك النهضة إنفو ومواقع مغربية من مثل موقع " تورس " الذي ظل إلى اليوم ينقل مقالاتي كلها أينما وجدها. ومواقع أخرى قد لا أحصيها اليوم. لقد كانت المقاومة الإلكترونية جزء من حياتي بل جزء من نشاطي اليومي وبمثل ذلك كانت جزء من المقاومة السلمية المدنية الفكرية والإعلامية التي تبنتها الحركة لتخضيد شوكة المخلوع بن علي. لم أقتصر على كتابة المقالات بل أنجزت دراسات وبحوثا كثيرة وصل عددها العشرة أو أكثر ولكن لم أتمكن من نشرها بسبب ضيق اليد والله أسأل أن يرزقني مالا يمكنني من ذلك.

12 ـ كما كنت مساهما في النشاط الإغاثي إذ ساهمت في تأسيس جمعية إغاثية كبيرة إسمها جمعية مرحمة وكنت ـ بل لا زلت ـ نائبا لرئيسها وهي جمعية ألمانية إغاثية لا سياسية ولا حزبية ولا نفعية ولا ربحية وذات نفع عام. أسست الجمعية لما وقف العمل الإغاثي على عوده وتهاطلت علينا المساعدات من أصحاب الخير من كل صوب وحدب لتكون تلك الجمعية منارة خير ساهمت في كفكفة دموع كثيرة وذلك بالرغم من أن جهدنا لم يتجاوز ربما خمس الحاجة التونسية ضمن العائلة النهضوية التي تعرضت في تونس للقهر والتجويع والحصار. للجمعية اليوم وجود في تونس العاصمة وفي بعض مناطق البلاد ولها رجالها ونساؤها ومساهماتها الإغاثية والإنسانية. ولها موقعها الإلكتروني لمن شاء الإطلاع على أكثر ما يمكن من هويتها وأنشطتها. ذلك عمل أعتز به كثيرا بل هو من خير الأعمال التي تقربت بها إلى ربي سبحانه. تلك حقبة من حياتي لكم أود أن الله يمنحني عمرا جديدا وقوة جديدة لأواصل على دربها.

13 ـ عقدت الحركة في المهجر المؤتمرات التالية : مؤتمر 1995 وكان شعاره العام هو العمل على إعادة الصحوة والحركة إلى البلاد ومؤتمر 2001 ثم مؤتمر 2007 أي ثلاث مؤتمرات دعمت الرصيد المؤتمري للحركة الذي بدأ بالمؤتمر التأسيسي لعام 1979 ثم المؤتمر الإستثنائي لعام 1981 وهو المؤتمر الذي أقر تغيير الإسم من الجماعة الإسلامية إلى حركة الإتجاه

الإسلامي كما أقر الإنتقال من العمل الدعوي والسري إلى العمل السياسي والعلني ضمن حزب سياسي قابله بورقيبة بالإعتقالات والإعدامات والمطاردات. ثم مؤتمر 1984 الذي صادق على تقويم موسع معمق جدا كان رائده مشروع فكري عظيم جدا في الحركة إسمه مشروع الأولويات كما كان ذلك المؤتمر إنتخابيا أي بعد الخروج من السجن للقيادة التاريخية المعتقلة منذ عام 1981. ثم مؤتمر مضموني مهم جدا كذلك هو مؤتمر 1986 وهو أول مؤتمر يشارك فيه صاحب هذا الكراس وهو المؤتمر الذي أنجز ثلاث وثائق أسست لهوية الحركة أو بالأحرى دونتها وأكدتها وهي : الرؤية الفكرية والمنهاج الأصولي للحركة من ناحية والإستراتيجية الإصلاحية للحركة من ناحية أخرى وكذلك تصورنا التنظيمي الداخلي. وآخر مؤتمر داخل البلاد هو مؤتمر ربيع 1988 أي بعد خروج الفوج الأول من المساجين من بعد إنقلاب المخلوع بن علي ضد بورقيبة وهو المؤتمر الذي إنتخب فيه الدكتور الصادق شورو الأستاذ الجامعي المعروف في العلوم الفيزيائية رئيسا للحركة وإسم الرجل معروف إذ هو أكثر تونسي تعرض للسجن وللسجن الإنفرداي أي على إمتداد زهاء عشرين عاما كاملة في محاولة من المخلوع بن علي للإنتقام منه ومن الحركة ومن المعارضة ومن قيم الصبر والشهامة والكرامة والرجولة والمروءة ولكن تجري السفن كثيرا بما لا يشتهي السفن كما تقول العرب.

14 ـ تعلمت اللغة الألمانية بسرعة قياسية في الحقيقة إذ أوليتها ما تستحق من إهتمام وعناية وأصبحت في ذلك من المتفوقين ضمن إخواني النهضويين المقيمين هناك ولكن أضعت اللغات التي تعلمتها قبل ذلك من مثل الإنجليزية والتركية أما الفرنسية التي أرضعتها من لدن البرنامج التعليمي البورقيبي فلم تتزحزح من صدري قيد أنملة إذ أني من خريجي المدرسة البورقيبية التي تعلمت فيها كل شيء ـ أجل. كل شيء دون أي إستثناء ـ باللغة الفرنسية حتى الرياضة والموسيقى والتصوير والتاريخ والجغرافيا بله الحسابيات والإقتصاد وغير ذلك. لم يكن ذلك خاصا بالمرحلة الإبتدائية فحسب بل صاحبني ذلك حتى المرحلة الثانوية. وهي لغة ـ أي الألمانية ـ أحببتها وأعتبرها رصيدا من أرصدة حياتي.

15 ـ تأقلم أبنائي مع المناخ الألماني بسرعة كذلك إذ تعلموا اللغة الألمانية وبأسرع مني قطعا بسبب حداثة السن. زاولوا تعليمهم هناك ومازال بعضهم يفعل ذلك حتى اليوم في الجامعة الألمانية ويشتغل بعضهم الآخر وأوضاعهم مستقرة إذ تزوج خمسة منهم زيجات تونسية خالصة ولي منهم أحفاد. ماتت أمي عليها رحمة الله سبحانه قبل الثورة بعام واحد ولم ألقها إلا مرة واحدة إذ زارتني في ألمانيا عام 2002 على ما أذكر أما أبي فقد عادني هناك مرتين متتاليتين ومات بعد الثورة بزهاء عام كامل. كما زارني هناك أبوا زوجي مرة واحدة.

16 ـ مما يجدر تسجيله هنا كذلك هو تداعينا عام 2009 إلى تأسيس المنظمة الدولية للمهجرين التونسيين بمدينة جنيف السويسرية وهي مبادرة من مجموعة كبيرة من المعارضين السياسيين التونسيين في أروبا وأمريكا وغيرهما منهم الحقوقي الشهير الدكتور منصف المرزوقي ـ

الرئيس التونسي الحالي ـ وقيادة الحركة ـ أي حركة النهضة ـ وحركات سياسية وأحزاب أخرى وشخصيات حقوقية وسياسية مستقلة وفدت من تونس للمشاركة في المؤتمر التأسيسي الأول لتلك المنظمة التي أفرزت بشيء من التوافق والإنتخاب الأستاذ نور الدين الختروشي رئيسا لها والأستاذ عماد الدائمي أمينا عاما للمنظمة ومكتبا تنفيذيا وغير ذلك مما ظللنا نتشاور فيه إستكمالا للأجهزة الإستشارية للمنظمة ثم سرعان ما إندلع فجر الثورة التونسية. ساهم صاحب هذا الكراس بكلمة بإسم الجمعية الألمانية التونسية للثقافة والإندماج ـ وهي الصيغة التنظيمية التي إخترناها في ألمانيا لإستيعاب الحركة هناك ومناشطها وأبنائها سيما من بعد الهجوم الإرهابي الذي جد في جربة عام 2002 بمناسبة عيد يهودي عالمي وقضى في إثره عدد من السواح الأجانب وظل الفقير إلى ربه سبحانه رئيسا لمجلس شورى تلك الجمعية لسنوات تربو عن العشر تقريبا ـ.

17 ـ من البلدان التي ساقتني إليها أقدار الرحمان سبحانه في أثناء عقدي التهجير القسري من بلدي : مالي والنيجر ضمن عمل إغاثي تابع لجمعية مرحمة الإنسانية حيث كانت لنا مشاريع تعمل على تخفيف وطأة الجوع والفقر هناك. و أغلب البلدان الأروبية بل ربما كلها عدا إسبانيا وكذلك رحلة الحج عام 2000 ضمن عدد من الدعاة الذين وقع إختيارهم ليكونوا ضيوف الرحمان سبحانه على نفقه المملكة العربية السعودية وكان من أشد ما شد إنتباهي في تلك الرحلة هو مجمع طباعة المصحف الشريف حيث ظللنا زهاء ساعتين كاملتين بل أكثر برفقة المهندسين العاملين هناك يشرحون لنا مختلف المراحل التي يمر بها الحرف العربي في كل آية وكل كلمة ليقع إعتماده رسميا في كتابة المصحف. قلت في نفسي : سبحان الله هذا هو تأويل من تأويلات قوله سبحانه وعدا مكتوبا :" إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ". أجل. يحفظ كتابه بمن شاء وكيفما شاء.

كما جدت أمور أخرى مهمة أستحفظ عليها اليوم مراعاة لبعض الإعتبارات التي وجبت رعايتها وربما تحين الفرصة لتثبيتها في كراس تأريخي إذا أمد سبحانه في العمر من جديد.

قصتي مع طلب العلم.

لا أعد نفسي دوما سوى طويلب علم مبتدئ ناشئ يحبو بأمل وألم معا على شطآن فقه الحياة وفقه الحياة هو البوابة لفقه الدين عند طويلب العلم هذا. لا أقول ذلك تواضعا مزيفا على حد تعبير أحد الذين تأثرت بهم كثيرا وتتلمذت على كتبهم وهو الشيخ محمد الغزالي عليه رحمة الله سبحانه

ولكنها الحقيقة التي أشعر بها في سويداء فؤادي. ولا أظن إلا أن كل من ذاق حلاوة العلم وعرف عمق الفقه وجماعه وجهود الأولين فيه يشعر بالذي أشعر. أما المغرور فحسبك كلام أحد أساطين الفقه فيه وهو سفيان الثوري :" إنما الفقه رخصة من فقيه أما التشدد فيحسنه كل أحد ".

بدأت قصتي مع طلب العلم يوم الثالث من جانفي يناير من عام 1983 وذلك بمناسبة حصول إنكشاف ما كنا نسميه يومها إنكشاف مكتب حمادي أي حمادي الجبالي الأمين العام لحركة النهضة ورئيس الحكومة السابق. يومها طرحت السؤال على نفسي : أي أناس نحن وأي كسب لنا وأي مشروعية لنا ونحن نبتلى بإنكشافين في وقت وجيز أولهما يوم 5 ديسمبر 1980 وأثمر إعتقالات وسجونا وتشريدا وثانيهما يعقبه بما لا يزيد عن عامين إلا قليلا. رجعت إلى بيتي في المساء مضطربا قلقا منزعجا وفي رأسي تدور أسئلة من ذلك الضرب وإذ كنت يومها مشتركا في مجلة الأمة القطرية الشهرية الذي كان يديرها الأستاذ عمر عبيد حسنة ألفيت يومها بالذات العدد المخصص لذلك الشهر في إنتظاري في البيت وكان موضوعه الرئيس يناقش قضية كسب الحركة الإسلامية وتحديدا بعنوان للإمام القرضاوي تحت إسم : أين الخلل في الحركة الإسلامية وهو الذي صدر من بعد ذلك في كتاب. وبقدر منه وحده سبحانه عكفت على الإهتمام بتلك القضية التي لامست فيّ جرحا يثعب وأنا عائد متعب من التفكير في الجروح التي تصيب الحركة الإسلامية التونسية في تلك الأيام. لك أن تقول بإطمئنان كبير بأن العبد الفقير إلى ربه وحده سبحانه أدرك يومها فحسب أن بينه وبين الوعي المطلوب خرقا ليس بقريب ولكن رتقه ليس ببعيد. إنخرطت في ذلك الإتجاه من التفكير النقدي الإيجابي بحسبان الحركة الإسلامية عملا بشريا يتعاطى مع الأسباب والسنن مثله مثل أي عمل بشري آخر وهو محكوم بمثل ذلك وأن مراجعته لأجل إصلاحه وتقويم مساره مسؤولية العاملين وأن إلتصاق ذلك العمل بمحكمات الوحي الكريم وسيرة سيد البشر محمد عليه الصلاة والسلام والإفادة من التجارب الفاشلة والناجحة في الكسب الإنساني هي مسؤوليات أخرى كذلك. ومجموعة أخرى من القيم والمثل والمسؤوليات الفكرية والعملية التي أدركت أنها كانت غائبة عني وأن الإنخراط فيها واجب الوقت لحسن الكسب. صادف كل ذلك هوى في نفسي سيما مع ما جد بنا في تلك الأيام وسيما أني ممن شملهم التعقب في تلك المحنة المبكرة إذ ذكر إسمي في المباحث الأمنية في وزارة الداخلية وإلتزمت التخفي لأسابيع قليلة بمثل ما ذكر ذلك فيما أنف من حديث في هذا الكراس الصغير المتواضع. الآن أصبح لي إتجاه نقدي إيجابي داخل الحركة الإسلامية وظللت على ذلك حتى يومنا هذا. رجلان ذكيا في ذلك أولهما الشيخ الغنوشي بمقابلة مطولة جدا له مع مجلة المجتمع الكويتية التي كان يرأس تحريرها الإعلامي الشهير في قناة الجزيرة أحمد منصور وذلك في عام 1980 إذ تطرق لأول مرة في التاريخ إلى نقد تجربة حسن البنا علية رحمة الله سبحانه ورضوانه وهو الأمر الذي لم يتجرأ عليه علنا غيره ولكن ذلك التصريح السابق لمبادرة القرضاوي في التنبيه إلى الإخلالات التي ترزح تحتها الحركة الإسلامية لم يثر

فيّ ـ رغم سبقه ـ الذي أثار فيّ ما أثاره الموضوع الرئيس لمجلة الأمة القطرية. القضية واضحة جلية إذ كان كلام الغنوشي بالنسبة لي أنا نظريا لحداثة إنتمائي إلى الحركة الإسلامية ومباشرة الشأن العام أما كلام القرضاوي فقد كان يعالج وضعا أنا جزء منه. ذلك هو الفرق الجلي دوما بين النظرية وبين المعالجة.

منذ ذلك اليوم أقبلت على توجيه الحس الإطلاعي عندي وهو مرتفع جدا ولله الحمد والمنة إلى الدراسات الشرعية التأصيلية في القضايا الفكرية والسياسية المطروحة على الناس وعلى الحركة الإسلامية يومها وحتى اليوم. أقبلت على مؤلفات الإمام القرضاوي أعب منها عبا عجيبا ومثلها مؤلفات الشيخ الغزالي عليه رحمة الله سبحانه وكل من يتجه في ذلك الإتجاه الفكري أي المساندة النقدية للصحوة الإسلامية بحسبانها معولا عليها لإستئناف الحياة الإسلامية الجامعة لا تذر سياسة ولا دينا ولا فكرا ولا علاقات داخلية و لا خارجية. منذ ذلك اليوم أصبح ذلك هو إتجاهي جامعا بين التثقيف الشرعي النزاع إلى العلم والفقه بمعناه الإسلامي الأصيل والجامع من جهة وبين الثقافة المعاصرة إذ كنا سيما يومها في مواجهة مفتوحة بأسلحة ثقيلة مع عبيد الفكر الغربي الوافد بشتى مدارسه وألوانه من جهة أخرى وبين الإتجاه النقدي داخل الحركة الإسلامية ومؤسساتها التي كنت جزء منها وهي مهمة عسيرة دون ريب ولكن التسديد بيد ربك وحده سبحانه.

ظللت أطالع وأقرأ بل أدرس وأنفق المال لأجل ذلك وإقتنيت برامج كلية الشريعة ودرستها وعاملت نفسي طالب علم صارم مع نفسه إذ لم أتمكن من التسجيل المباشر فيها ودعمت ذلك بالكتابة وإلقاء الدروس والمواعظ والمحاضرات وإدارة الحوارات والإمامة وغير ذلك فلما هاجرت إلى أروبا إنخرطت في الكلية الأروبية للعلوم الإنسانية طالب علم ولكن خانني المال فلم أواصل ولكن إقتنيت البرنامج بأسره وإستعنت ببعض الطلبة المرسمين وعاملت نفسي كذلك معاملة طالب علم مثابر جاد صارم مع نفسه وبمثل ذلك فعلت مع الكلية الأمريكية للعلوم الإسلامية ومع البرنامج الأزهري في القاهرة ووضعت لنفسي هدفا لم أضن عليه لا بالمال ولا بالجهد الفكري وما يقتضيه من أسفار وهو أن أكون متحصلا على حد أدنى من العلوم الشرعية الدينية الإسلامية بإهتمام معاصر ولغة معاصرة وظللت كذلك حتى حققت فيه بفضله وحده سبحانه أقدارا وأقدار أخرى هي على طريق الإستكمال بحوله وحده سبحانه. وأمور أخرى في هذا الطريق لا فائدة من ذكرها إذ تثير فيّ حلاوة الشعور بالكسب من بعد جهد والله وحده أسأل سبحانه أن يخلص العمل كله لوجهه الكريم وأن يجعلني من خير من تعلم القرآن وعلمه وممن قال فيهم حبيبه عليه الصلاة والسلام :" من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ".

كارثة سبتمبر وإمتحان الإسلام في الغرب وأمريكا وأروبا.

كانت كارثة الحادي عشر من سبتمبر من عام 2001 ـ أي هجوم القاعدة على الأبراج الأمريكية في حي مانهاتن بنيويورك ـ إمتحانا عسيرا للوجود الإسلامي بأسره في أروبا بصفة خاصة بإعتبار أن أغلب مكونات ذلك الوجود ـ سيما الوافد منه لا الأصلي ـ هو في أروبا وخاصة الشرقية. هو إمتحان توافق عليه نقيضان لا يجتمعان إلا عند حصول الحماقة والطرفان هما تنظيم القاعدة بزعامة بن لادن عليه رحمة الله سبحانه من جهة والإستخبارات الأمريكية من جهة أخرى أي بزعامة سفاح العصر بإمتياز شديد ـ ربما من بعد الهالك شارون ـ أي جورج بوش الإبن. إمتحان مر علينا ـ نحن الناشطون في الحقول الدعوية والسياسية والإغاثية ـ فكاد يجعل السقف يخر علينا من فوق رؤوسنا وهو سقف بناه الرجال الأتراك والمصريون في ألمانيا مثلا من قبل ذلك بزهاء نصف قرن كامل. هو سقف منيع فيه مئات المؤسسات في تلك الحقول وخاصة الإغاثية والإنسانية والمسجدية والدعوية والفكرية التي ظلت تعمل طيلة تلك الفترة على التمكين للوجود الإسلامي وحفظ هويته الإسلامية ومزاولة نشر الإسلام بمبادئه السمحة في تلك الربوع وقد أثمر ذلك الجهد الكبير حصيلة كبيرة. جاءت تلك الكارثة لتعلن للناس أجمعين بأن الإسلام في حالة صدام عسكري مفتوح وبأسلحة ثقيلة جدا مع العالم كله وأول العالم هو أمريكا. هي حماقة دون ريب عندي من جانب تنظيم القاعدة ولكن التأويل الأقرب إلى الحقيقة هو أن تلك الكارثة إن هي إلا مصيدة محكمة الترتيب يتوسطها فخ عجيب نصبته الإدارة الأمريكية ليسيل لعاب المجاهدين بإسم الإسلام جهادا لا علاقة له بالإسلام أي جهادا فوضويا وبذلك تتحصل الإدارة الأمريكية على صك على بياض لإحتلال البلاد العربية التي تمور من تحتها ذهبا أسود أي البترول الذي لا بد منه لتشغيل المحركات الأمريكية وضمان التفوق الإسرائيلي في المنطقة وكذلك ذهبا أحمر وهو الذهب الحقيقي لنهب الثروات وإستلاب المقدرات وتأبيد التخلف علينا. لا بد من الإعتراف بأن الخطة من لدن أعداء الإسلام وأمته كانت ذكية محكمة ولا بد من الإعتراف كذلك بأن الحماقة من لدنا كانت كذلك حماقة غبية. لا ضير علينا من الإعتراف بذلك إذ النجاحات المستدامة الحقيقية إنما تبنى من بعد جولات فاشلة وليس كالإخفاق يولد الهمة لنيل المطالب العليا.

كان كل شيء في أوربا يشير إلى أن المسلم إرهابي بالضرورة. هو أمر يشعر به كل مسلم هناك سيما من الناشطين مثلنا. المصيبة كانت في ألمانيا أعظم بسبب أن جزء من " المجاهدين " إنطلقوا في حملتهم ضد نيويورك من مدينة ألمانية شهيرة وكبيرة إسمها هامبورج.

لمن يريد معرفة الوزن السياسي للإسلام والمسلمين في ألمانيا فما عليه إلا أن يطلع على التقرير السنوي الذي تصدره المحكمة الإدارية العليا في ألمانيا وهي محكمة مهمتها الأولى حماية الدستور الألماني وهو تقرير يتكون من مئات الصفحات ويقوم العبد الفقير إلى ربه صاحب هذا الكراس بترجمة ذلك التقرير إلى اللغة العربية ويرسل به إلى بعض المحطات الإلكترونية من

مثل إسلام أون لاين. المثير في التقرير أنه يحتفظ بقدر واسع جدا من الشفافية ويعطيك فكرة جلية صحيحة عن الإهتمام الألماني في المصاف السياسية والأمنية العليا بالإسلام وبرجاله وحركاته ومؤسساته.

من ذلك أنه يرتب الإخوان المسلمين حركة متطرفة وموئل التطرف فيها أنها تدعو إلى دولة دينية تريد تطبيق الشريعة الإسلامية ثم يعرج في سطر واحد أو سطرين على حركة النهضة التونسية بحسبانها جناحا من أجنحة كثيرة لتلك الحركة الإسلامية الأم.

ولم تصنف حركة النهضة ولو مرة واحدة من لدن الإستخبارات الألمانية على أنها حركة إرهابية بل ظلت ـ كما قلت ذلك فيما أنف من حديث في هذا الكراس ـ التزكية الكتابية التي يسندها رئيس الحركة الشيخ راشد الغنوشي إلى طالب اللجوء وثيقة مهمة تساعد على الحصول على اللجوء السياسي.

ذلك مكسب كبير وعظيم وهو مندرج ضمن مقاومة الحركة بشراسة وقوة وعلى إمتداد سنوات طويلات لأجل تخليص نفسها من التهمة الباطلة التي حاول المخلوع بأدواته الكثيرة إلصاق الحركة بها وهي أن الحركة حزب متطرف إرهابي. ثم سرعان ما بطلت تلك التهمة وتبين للعالم كله أن هذه الحركة قد تكون متطرفة بآرائها في الشريعة وغيرها من وجهة نظر غربية وذلك هو المنظور والمأمول والمعروف ولا غبار عليه ولكنها حركة سلمية مدنية ديمقراطية ثم إنقلب الساحر على الساحر بفضله وحده سبحانه سيما من بعد حصول ثورة الحرية والكرامة في 14 يناير جانفي من عام 2011.

من الجمعيات التي إستطاعت الإدارة الألمانية إغلاقها أثرا من آثار كارثة سبتمبر هي جمعية الأقصى وهي جمعية خيرية تجمع المساعدات المالية والعينية لفائدة الفلسطينيين المشردين في بلدهم وعلى هوامشه وعددا آخر غير كبير من الجمعيات المماثلة في القطاع الدعوي والإغاثي.

ثم كتب الله سبحانه النجاة للوجود الإسلامي في الغرب كله وفي أروبا بصفة خاصة من آثار تلك الكارثة المدوية التي كانت تستهدف تصفية ذلك الوجود لتطهير أوربا من الإسلام وأنى لهم ذلك وأروبا يغشاها الإسلام من أبنائها وبناتها أنفسهم. بل إن أصلها إسلامي إذ عمر الإسلام في الأندلس (إسبانيا الحالية) ثمانية قرون كاملات تعلم فيها الأروبيون قيما جديدة من قيم التحضر والترقي والمدنية من مثل إنشاء الحمامات بالمنازل بقصد التطهر والتطهير ولمن شاء مزيدا من ذلك فما عليه إلا بكتاب فريد في حقله هو للمستشرقة الألمانية سغريد هونكة (شمس العرب تسطع على الغرب).

إنما هي إمتحانات وإختبارات نخضع لها في هذه الدنيا ثم تزول وتظهر نتائجها ونتعرض لإمتحانات أخرى جديدة وتلك هي دروة الحياة التي ما خلقت إلا بغرض الإبتلاء حتى يتوفى الله الأنفس حين موتها.

الثورة ونداء العودة

الإنسان كائن يتعلم من محيطه ولا ضير في ذلك إذ تعلم نبي كبير هو سليمان عليه السلام من طائر الهدهد وتعلم إبن آدم الأول من غراب ليواري أخاه وتعلم أبو هريرة أن أعظم آية في الكتاب العزيز الهادي من الشيطان الرجيم وهي آية الكرسي وما تعلمته من الهجرة كثير وكثير وكثير. إلا أن الجهل يغلب علينا أحيانا والغفلة وغيرهما من الآفات ومن ذلك أن العبد الفقير إلى ربه صاحب هذا الكراس ظن جهلا منه أن الأمر إستتب للمخلوع بن علي في تونس لا بشعبية زائفة كاذبة ولكن بظروف دولية محيطة من جهة وبإذلال وقمع رهيبين تعرض لهما التونسيون

والتونسيات من جهة أخرى ولا مناص من الإعتراف بأن " الرجل " نجح في إقتلاع بذرة المعارضة والثورة والعصيان من الصدور بعصا البوليس وبالدرس القاسي جدا الذي ألحقه بالنهضة وبالمعارضة الجادة وربما يقيض ربك سبحانه للثورة أجيالا أخرى جديدة وذلك عندما تذهب النهضة في سبيل حالها ويطوي المخلوع بن علي الزمان. ظن العبد الفقير إلى ربه سبحانه صاحب هذا الكراس أن العودة إلى تونس حلم يدغدغ الفؤاد ولكن لقيا الأهل والأحبة لا سبيل إليها قبل ولوج جنة الرحمان سبحانه. أجل. كذلك خيل إلي ورب الكعبة.

وإذ نحن منهمكون في أعمالنا هناك موزعين بين حقول دعوية وأخرى إغاثية وثالثة تنظيمية وسياسية وفكرية وغير ذلك حتى ظهرت بوادر العصيان في وجه المخلوع بن علي بدء من إنتفاضة الرديف في عام 2008 ثم في بنقردان ومن بعدها كما يسري اللهيب في أكوام التبن المكومة وسرعان ما إندلعت ثورة الحرية والكرامة في 17 ديسمبر 2010.

عندها تركنا كل شيء وأصبح الواحد منا مسمرا أمام الجزيرة القطرية يرصد الأخبار لحظة بلحظة لا يبرح مكانه ذاك إلا لأداء صلاة حان وقتها. الأمر الذي كان في حكم المؤجل عندي إلى أجل غير مسمى أصبح اليوم حقيقة. كيف لا أتسمر أمام الجزيرة القطرية لأتابع ما يجري في بلدي الذي حرمت من تكحيل عيني به وقد مضى علي اليوم كذلك عقدان كاملان. هذا هو الحدث الجلل. مرة أخرى أقول مثل هذه المشاعر لا تصلح بها الكلمات لا مرتجلة ولا مرتسمة فوق الأوراق لأن الأفئدة هي الكفيلة وحدها ببث ذلك. حديث الأرواح عندما تشغب عليه الألسنة والأقلام تقذره وتبتذله. هذا أمر ـ كما قال علي لعريض عندما سئل عن سجنه الإنفرادي من بعد خروجه منه ـ يعاش ولا يحكى. أجل كثيرة هي الأمور التي تعاش ولا تحكى.

شوق لا يوصف.

هذا أمر لم أكن أريد تسجيله ولكن آن أوانه وهو أني كنت عندما أذكر تونس في أثناء غربتي القسرية عنها وأكون فريدا وحيدا لا أتمالك من البكاء. بل أبكي بكاء مرا. حدث لي ذلك مرات ومرات ورب الكعبة وظل كذلك حتى إني عندما أكون على تلك الحال ـ وأغلب تلك الحال أكون فيها سائقا لعربتي متوجها إلى إلقاء محاضرة أو درس أو خطبة جمعة أو إدارة حوار أو لقاء تنظيمي أو غير ذلك من الشؤون ـ أشغل نفسي عن التفكير في تونس حتى لا أبكي. ربما يكون ذلك من الأسرار بيني وبين نفسي التي ما ينبغي البوح بها ولكن لم لا أبوح بمثل ذلك وقد حان أوانه. أما عندما أكون بحضرة الناس فلا أبكي مهما تباكى من حولي الباكون إلا في مناسبات العيد الأولى عندما كنا في تركيا فقد حصل أن بكيت مع الباكين لعيد أو لعيدين ثم جفت مني المآقي من مائها المالح.

لذلك أعيد كتابة هذا : حب الوطن غريزة في الإنسان وليس شيئا مكتسبا. هو غزيرة مثل غريزة الأكل والشرب وإتيان الشهوة سواء بسواء. عندما تنفي بشرا عن موطنه أو عن وطنه فأنت تقتله قتلا حقيقيا بل قل قتلا بطيئا وأنت تعذبه عذابا لا عذاب بعده. هذا أمر قد لا يدركه إلا من ذاق مرارة الإبعاد عن الوطن إبعادا قسريا سيما إذا كان المبعد يظن في نفسه أنه يخدم وطنه من خلال العمل السياسي والمعارضة السياسية أو الفكرية.

أنادي رافعا عقيرتي بصوتي : يجب إعتبار الوطنية والجنسية وما إليهما من قيم ومعان أمورا فوق الخلافات السياسية والفكرية كما يجب تجريم رفع الجنسية عن آدمي مهما فعل وجنى في نظر المتحكمين ولا سبيل لحرمان إنسان من جنسيته أو من وطنيته. لو كانت الوطنية وثيقة تسند لخربت الأوطان بأيدينا نحن البشر عندما نتلجلج في الخصومة.

وكتب الله لنا عودة.

عدت والعود أحمد. كان ذلك في الفاتح من أبريل من عام 2011. عدت برفقة زوجي على متن طائرة تونسية حطت بنا في مطار جربة. دمعت عيناي مرة أخرى والطائرة تحط بنا شيئا فشيئا وتقترب من ملامسة الأرض التي أبعدت عنها ظلما وقهرا من يوم الجمعة 30 نوفمبر 1990. دمعات حرى أخفيتها عن زوجي ولا أدري إن كانت قد أصيبت بالذي أصبت. على كل حال كثيرا ما يذرف الفؤاد دموعا لا يراها الرائي. ودموع الفؤاد المستخفية أشد على الإنسان ألما من دموع المآقي. أنا أعد حب الوطن عبادة أتقرب بها إلى ربي سبحانه. فهو الذي حباني قائلا : " بلدة طيبة ورب غفور". تونس بلدة طيبة وهو سبحانه رب غفور. كما أعد البكاء لأجل تونس عبادة لا تقل أجرا عن عبادات أخرى كثيرة نزهد في كثير منها.

كان حالي يومها حال كل مسافر يطأ أرضا يحبها ولا يعرف عنها شيئا تقريبا. حالي هو حال المتفرس في الوجوه والمستطلع إلى الأشياء أرقب كل شيء وألاحظ وأفكر وأقطع مسافة بعقدين كاملين في لحظات قصيرات.

كان كل شيء متواضعا يومها في الترتيبات الإدارية وتجهيزاتها ولم يكن ذلك ليصرفني عن التفكير فيما حصل. كنت أود أن أقبل الأرض والجدران. ما إن أستوفيت الإجراءات القمرقية حتى فوجئت بما لا يقل عن خمسين من المستقبلين في المطار وكنت أسلم على هذا وألثم ذاك ولا أكاد أتعرف لا على هذا ولا على ذاك. تعرفت على رفيق الدرب أحمد لعماري وما ينبغي لي أن أنسى مثله ولكن لم أتعرف على كثير من المستقبلين منهم شقيقي الأصغر خالد إذ تركته طفلا صغيرا لا يكاد يؤبه له في البيت فإذا به ثخين الجثة وصاحب ذقن أسود كبير نسبيا ويحمل نظارات. سلمت عليه وخرجت من المطار وقيل لي هل سلمت على أخيك خالد؟ قلت : أين هو؟ قيل لي هو هذا فسلمت عليه من جديد ولو لم أنبه إلى ذلك ما كنت لأعرفه البتة. ثم إتصلت بي

إذاعة تطاوين وبثثتها الذي بثثتها من حديث لزهاء عشرين دقيقة. وعند وصولنا إلى البيت الذي خرجت منه يوم الجمعة 30 نوفمبر من عام 1990 كانت الأعداد هناك غفيرة تربو عن المئات وظل الناس يتوافدون مهنئين على إمتداد أسبوع أو أزيد. هذا أتعرف عليه بسرعة وذاك يعاتبني لنسياني إياه وثالث يقدم نفسه. ورابع يذكرني بحادثة تجعلني أذكره. إكتشفت بسرعة أن ذاكرتي فيما يتعلق بالأحداث الصغيرة والكثيرة أضحت غربالا واسع الثقب. أجل. ذكرني الناس بأحداث كثيرة ومازالوا يذكرونني بمثل ذلك إلى اليوم وأيقنت أني نسيت كثيرا جدا من تلك الأحداث.

الرجل الذي كان للقائه طعم خاص هو أبي عليه رحمة الله سبحانه. هما لقاءان أو قل ثلاثة. اللقاء الأول الذي يحمل الطعم الخاص كان يوم خروجي من السجن في أواخر عام 1988 إذ كان عليه رحمة الله سبحانه ينتظرني مع عدد آخر كبير في بيت المرحوم الحاج علي اللافي ـ وهو صديق عزيز جدا ومن القلائل جدا من الذين بكيت عليهم بكاء مرا لما علمت بوفاتهم وأنا في أرض المنفى ـ. إن أنسيت شيئا فلن أنسى أن أبي عليه رحمة الله سبحانه تأبطني في تلك الليلة وراح يقبلني ويعانقني وهو يبكي ويذرف علي دموعا ويعاملني كأني طفل صغير نجا من فك تمساح بأعجوبة كما يقول الأدبيون وتعجبني كلمة : بفضل الله سبحانه وفضل الله سبحانه هو أعجوبة الأعاجيب. ولا عبرة بالمصطلحات ولكني أختار ذلك. لم يكن أبي عليه رحمة الله سبحانه يفعل بي ذلك لا خلوة ولا بحضرة الناس. ولكن أدركت يومها أن شوق الوالد إلى ولده هو شوق لا مكان له إلا في إمارة الأشواق. أبي الذي ظل طول حياته يحذرني من العمل السياسي ويروي لي ما فعل بورقيبة باليوسفيين وبتعبيره هو يقول لي باللهجة التونسية العامية : يداوي بهم دبر الخيل. أبي الذي ظل يحاول طول حياته إثنائي عن الإنتظام في حركة سياسية تعارض بورقيبة الذي إنتصر على الزواتنة واليوسفيين والشيوعيين والنقابيين والناس أجمعين. أبي الذي ظل يغضب علي لأجل ذلك مرات ومرات. أبي الذي ظل لا يتسلل إليه اليأس من ترغيبي عن الإهتمام بالسياسة. ذاك هو أبي الذي يعانقني اليوم باكيا والناس من حوله. سبحان الله وبحمده. تلك هي المرة الأولى لذلك اللقاء الأول صاحب الطعم الخاص.المرة الثانية كانت يوم جئته مودعا إياه على طريق الفرار إلى القطر الليبي. إلتقينا في كوخ صغير يحرس بعض المواشي قبالة بيتنا. إلتقينا ليلا على إنفراد بترتيب حذر جدا أن تطالنا عيون الوشاة الذين جندهم المخلوع بن علي ليسلخهم عن دينهم وقيمهم وأي إنسلاخ أشد على المرء الشهم من أن يقبض زهاء سبعين دينارا في الشهر في مقابل أن يرصد حركة هذا المعارض أو سكنة ذاك المرتاب فيه ممن لا يكنون عاطفة إيجابية تجاه الحكم القائم. ذاك موضوع يجرح الأفئدة ودعنا منه فقد عفا الله عما سلف.إلتقينا في ذلك الكوخ في ظلام دامس ولا يرانا إلا من يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور سبحانه. أعلمته بشأني فظل يبكي ويبكي ويبكي بكاء مرا. وظللت أنتظره لعله يفرغ من بكائه لأستطيع وداعه ولكنه ظل كذلك باكيا. وكان علي ألا أخالف أمر الرجال الذين يعملون على ترتيب اللقاء ومواصلة طريق الفرار إلى القطر الليبي. أخذت بيده الكريمة وودعته وتركته باكيا في ذلك الكوخ ولا أدري ما فعل بنفسه من بعد ذلك. ولم أره من بعد ذلك إلا عندما زارني

في ألمانيا سنة 2001. الطعم الخاص الثالث كان عند عودتي من بعد إندلاع الثورة وكان يومها ضريرا بالكامل عليه رحمة الله سبحانه. قبلته من جبهته الكريمة وظل يردد كلمات الحمد والثناء لصاحب الفضل سبحانه. أما الوالدة الكريمة فقد واراها التراب عاما واحدا قبل عودتي.

هل أطالب بإستعادة حقوقي.

هذا هو الآخر محور لا غرض لي فيه البتة لولا أن الطالبة الحقوقية التونسية طلبت مني ذلك فكان إذن لا مناص من التفاعل مع رغبتها.

مما لا بد من ذكره هنا أن أمرا آخر كان يستدر دموعي ويبكيني علاوة على ما أنف ذكره من ذكري لتونس في أرض المهجر الجديدة سيما عندما أكون منفردا لا في ملإ من الناس. الأمر الآخر الذي كان يبكيني حقا هو عندما أبصر تونسيا يحمل جواز سفر تونسي أخضر اللون. كنت أبكي ورب الكعبة وأقول في نفسي : بلغت من العمر خمسين عاما وأزيد وأنا محروم من أن أحمل بين يدي وفي جيبي ومحفظتي جواز سفر البلاد التي أحيا لعزها ومجدها مذ عرفت الحياة وأدركت المعركة الشرسة بين الناس. البلاد التي سجنت لأجل حريتها وإنعتاقها من سياسات الإلحاق والتغريب. البلاد التي هجرت لأجل تحررها من سياسات التصهين وتجفيف المنابع والإستبداد الأعمى. تلك البلاد قد أموت ولا أحمل جواز سفرها الأخضر القاني بين يدي. ذلك هو الإنسان قطعة مركبة فيها من العقل ومن النفس ومن الروح ولكن فيها كذلك من العاطفة والحس المرهف والشعور والذوق وغير ذلك. ليس ذلك ضعفا مني ولا من غيري بل هي الوطنية بحسب ما أرى. لا يفتخر بعضنا على بعض في الوطنية مهما كانت آراؤنا مختلفة وإلا هلكنا وأهلكنا. يوم تسلمت من القنصلية التونسية في مدنية بون الألمانية لأول مرة في حياتي جواز سفر بلادي وكان ذلك يوم الحادي والعشرين من شهر يناير أي الشهر الذي جدت فيه ثورة الحرية والكرامة من عام 2011.. كان ذلك اليوم مشهودا عندي. قبلت الجواز الأخضر القاني وأحسست بالفعل أني تونسي قح بل أحسست أن مناسيب الوطنية عندي في إزدياد. أحسست أن دما جديدا يتسلل في شراييني. أعرف جيدا أن مثل هذا الكلام لمن لم يعشه لا يعني شيئا كثيرا ربما. إنما هي أمور تعاش ولا تحكى.

لا يسعدني ورب الكعبة أن تعاد إلي كل حقوقي السياسية والمدنية وبلادي تعيش الحيرة بين الثورة وبين الإنقلاب ضد الثورة. ذلك أمر لا يغني عني شيئا. أنا رجل بلغت الستين من العمر وأنا أكتب هذه الكلمات بل تجاوزتها. لا أظن أن أمامي في الحياة أشياء أخرى أكثر أو أزخر وأذخر وأعظم مما رأيت. من بلغ الستين ـ بل الخمسين ربما ـ لا يكون عوده إلا في إنحدار. أي العود المادي البدني الذي هو وسيلته إلى المعالي والكسوب النبيلة. أملي كله ـ ورب الكعبة ـ هو أن أرى بلادي ـ بل أمتي العربية والإسلامية بأسرها ـ في رغد من العيش تتقدم الدنيا وتقودها أو

لها على الأقل فيها رقعة تليق بها تحت سقف السماء المرفوع. ليس لي أمل آخر في مثل هذه السن وبعد هذا الكسب والحمد لله. لو قدر لي أن أضحي مرة أخرى في سبيل بلادي وأمتي وقيم الحق والعدل والخير التي أومن بها ما فررت بإذنه سبحانه وما تأخرت.

كانت الثورة بالنسبة لي ـ وهو أمر ربما أنفرد به إذ كتبت فيه كثيرا وتحدثت فيه أكثر ـ مظهرا من مظاهر التجدد في الحياة وذلك إستنباطا من الحديث النبوي الصحيح عند الحاكم وبعض أهل السنن :" إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها". أجل. الثورة عندي تجديد للدين والدين هو الإسلام والإسلام هو مفتاح النهضة والسؤدد لتونس وغيرها من البلاد العربية والإسلامية. الإسلام الذي يجمع ولا يفرق ويغني ولا يفقر ويسعد ولا يشقي ويحرر ولا يستعبد ولا يسترق. الإسلام الذي يحمل العدالة الإجتماعية قبل كل شيء والحرية الفكرية قبل كل شيء والوحدة الوطنية قبل كل شيء.

وعندما تغتصب الثورة ـ لا قدر الله ـ فإني أظن ـ وهذا حقي كاملا في ذلك الظن ـ أن أول مغتال في أمله ومغتصب في رجائه هو هذا العبد الفقير إلى ربه سبحانه تعالى وحده.

لا أقول ذلك لأن هذه الورقات الصغيرات القصيرات تقع بين يدي طالبة الحقوق التونسية ولا بين أي أيد أخرى. لا ورب الكعبة. ولكنه الشعور الذي يخترمني إختراما.

بكلمة واحدة مختصرة مقتضبة : إن أول حق أطالب به وأظل له عاملا هو حق بلادي في ثورتها وعدالتها ووحدتها وكرامتها وعزتها وسبيل الديمقراطية هو الكفيل بذلك كله. وعندما يستوي ذلك الحق على سبيله فلا علي ألا أستمتع بأي حق فقدته. إذ فقدت حقوقا كثيرة وكبيرة. من يعوض لي حق الإستمتاع بتونس الجميلة مهد صباي ومرتع ذكرياتي على إمتداد عقدين كاملين. لا أحد يعوض ذلك إلا رب العزة سبحانه يوم القيامة. لم أكن أحلم بالعودة إلى تونس أبد البتة البتة البتة وذلك من سوء إيماني وقلة أملي في ربي إذ لا أدعي الكذب عليه سبحانه.

ها قد عدت إلى عملي الذي أطردت منه يوم الثلاثاء 24 مارس 1987 أي يوم إعتقالي في المحنة الأولى. مازلت أنتظر التنظير مع زملائي وحقوقا مادية وإعتبارية أخرى ضمنها قانون العفو التشريعي العام ومراسيم حكومية أخرى تلته. عدت وأدركني سن التقاعد فأحلت عليه.

ذاك هو قولي الأخير فيما تريد طالبة الحقوق التونسية معرفته : طلبي الوحيد هو أن يتوحد التونسيون ـ سيما السياسيون منهم ـ لأجل إمضاء الثورة ومطالبها ولأجل الخروج من المرحلة الإنتقالية الصعبة ولأجل وضع سكة البلاد كما يقال على الطريق الصحيح ولا طريق يضمن لنا السؤدد والرقي والإزدهار إلا طريق صناديق الإقتراع والحكم التوافقي لإرساء السلم والديمقراطية والعدالة والبدء في لعق جراحات ثخينة جدا خلفتها عقود كالحة من الحكم البايد الماضي. طلبي الوحيد الأوحد هو العمل على إستعادة المحرومين إجتماعيا حقهم في الحياة أما

أنا فقد سترني الله سبحانه بفضله وأعيش مستورا ولا أطالب الدولة بشيء سوى حقي في التقاعد المناسب لسني وكسبي ورتبتي المهنية.

هل تعلمين ـ يا طالبة الحقوق التونسية ـ أن قصة رواها لي أحد الثقات جدا أرقتني ورب الكعبة وما ينبغي لها إلا أن تؤرق كل من يسمعها إن كان في القلب حياة. هذه القصة رواها لي الصديق العزيز منصف شامخ من مدنين وقد جدت أطوارها في قرية مقر بمعتمدية بني خداش. إكتشف صديقي هذا وهو ناشط حقوقي من بعد الثورة أن أرملة تعيش مع أولادها الثلاثة منذ سنوات طويلات في العراء.أجل. ورب الكعبة في العراء العاري بالكلية. ليس لهم أي مأوى سوى كهف صغير جرفته مياه الأمطار بجانب وتد رملي. هل تظنين أنه عندما أروي لك ما هو أغرب أني أكذب أو أبالغ. ما هو أغرب ـ ولكنها الحقيقة المرة ـ هو أن أبناء تلك الأرملة ليسوا مسجلين في الحالة المدنية. أي أنهم لا يعودون مدرسة ولا طبيبا ولا أي شيء رسمي. قصة أرقتني ورب الكعبة. بل دعيني أقول لك بصفاقة ووقاحة : من لم تؤرقه هذه القصة فليس له عندي أي حرمة وما أظن إلا أن فؤاده مات ومن مات فؤاده مات موتة لا حياة بعدها. آه لو يعلم السياسيون بمثل هذا حتى يطامنوا علينا من حدة عراكهم.

ذلك هو أملي منا جميعا أي أن نتكافل متعاونين لأجل أن تعبر بلادنا المرحلة الإنتقالية الصعبة في إتجاه شاطئ الأمان لنبدأ في صنع الحضارة والرقي والتقدم بأيدينا نحن ونصنع ما نستهلكه ونزاحم الرجل الأبيض في شمال الأرض.

ذلك هو أملي وذاك هو مطلبي ودون ذلك المطلب أضحي بما عندي إن كان عندي شيء أضحي به. لا تعنيني دريهمات معدودات وقد سمعت بحالة تلك الأرملة. أملي ألا أرى وألا أسمع بفقير مدقع في تونس. لا يعنيني من يصدق مني هذا الكلام ممن لا يصدقه ولكن يعنيني أني صادق مع نفسي وأن ربي سبحانه يصدقني فهو المؤمن سبحانه.

تجربة لها حصائل وخلاصات

ربما يكون هذا المحور الأخير هو الذي يعني الباحثين والدارسين والمتدبرين والمتفكرين من الناس أكثر من غيره مما سبقه من محاور يغلب عليها الطابع السردي القصصي. قد تكون المحاور السالفة مسلية ولكن العبرة منها إما أن يقتطفها القارئ بنفسه أو يجدها مثبتة هنا ولا ضير علي ولا عليه من بعد ذلك أن يتفق معي فيها أو في بعضها أو يخالفني. فلو تقاتل المختلفون من الناس أو تلاعنوا ما بقي على الأرض من كائن يسير ولا من طائر يطير. إنما هي سنة التعدد التي كتبها سبحانه علينا غريزة ونبهنا إليها في كتابه العزيز مرات ومرات لمن ألقى السمع وهو شهيد.

أبرز خلاصات التجربة وحصائلها.

1 ـ لقد قيل بحق أن من يعيش لنفسه يعيش قصيرا حتى لو مات عن قرن كامل أو أزيد أما من يعيش لغيره ولنفسه معا فإنه يعيش كثيرا حتى لو مات في العقد الثالث أو الرابع من عمره. قرأت عن رجال في التاريخ عاشوا قليلا جدا إذ لم يتجاوز الواحد منه الأربعين من العمر ولكنهم بما خلفوه من آثار مكتوبة وغير مكتوبة عاشوا كثيرا. عاشوا حياة حافلة بالعمل والجد والكد والكسب الطيب. لا فائدة في ذكر أسمائهم الآن. منهم مثلا الإمام النووي الذي تولى شرح صحيح مسلم بكامله وهو ذخر في العلوم الشرعية والدينية وترك لنا سفرا قال العلماء أن البيت الذي لا يحوي ذلك السفر هو بيت فقير وأهله معدمون وهو المعروف برياض الصالحين. أجل من يعيش لقضية في الحياة يعيش كثيرا بغض النظر عن العمر الذي عمره. تلك فائدة أولى أجنيها من تجربة العمل السياسي وتجربة اللجوء السياسي.

2 ـ الفقه الحقيقي هو فقه الحياة وفقه الدين جزء من فقه الحياة. تلك فائدة أخرى أجنيها من تجربتي. جنيت ذلك من تجربة أبي عليه رحمة الله سبحانه وتجارب أخرى كثيرة. عرفت رجالا ونساء لا حظ لهم في العلوم كثيرا ولكن حنكتهم التجارب والمعافسات والمغالبات والمجاهدات حتى أضحى الواحد منهم كنزا خصبا يمدك بالتجارب والفوائد والحكم. وبمقابل ذلك عرفت أطفالا ملؤوا رؤوسهم بالعلوم من كل صوب وحدب ومن كل حديقة وصيدلية ولكن بضاعتهم في فقه الحياة ـ أي في التعامل مع الناس والواقع والمشاكل ـ هي بضاعة مزجاة بالتعبير القرآني. السعيد هو من يجمع بين فقه الحياة وبين فقه الدين. ولكن إذا تعذر عنك أحدهما فأختر أن تتفقه في الحياة لأن تكاليف الدين بسيطة وصغيرة ومعروفة ولا تأخذ منك وقتا كبيرا ولا حتى جهدا عظيما. أما معرفة الحياة والناس وإكتساب التجارب لصناعة عقل كفيل بتقحم المشاكل وعدم الهيبة منها فذلك هو المعول عليه بحق. ذلك أن الإسلام دين واقعي يعمل على حل مشاكل الناس فالفقيه العالم هو الذي يسعى إلى الناس ويساهم معهم في حل مشاكلهم وليس هو شبيها بالقس أو الراهب الذي يأتيه الناس يسألون وهو يجيب مستويا على أريكة فخمة ينظر إليهم من عل. تلك صورة كنسية قبيحة.

3 ـ البلاد التي ولدت فيها وتعيش فيها وتأكل من أرضها وتحيا مع أهلها وتعلمت من مدارسها .. تلك بلاد لها عليك حق عظيم ولا مناص لك من الوفاء بذلك الحق والوفاء به هو خدمة تلك البلاد بقدر المستطاع. وتلك هي الحكمة من العمل العام سواء كان إغاثيا إنسانيا أو دعويا إرشاديا توجيهيا توعويا تعليميا أو سياسيا أو حزبيا تنظيما أو ماليا إقتصاديا أو إجتماعيا أو عسكريا أو غير ذلك من مطالب الحياة. لا معنى لتونسي لا تفيد منه بلاده أي إفادة فهو يعيش مستقيلا مقالا

من كل الوظائف العامة سيما التطوعية منها إلا من كان دون ذلك بسبب جهل مطبق أو أمية قاسية أو عجز بدني أو غير ذلك. ذلك هو ترجمان الوطنية وعربون الإنتماء إلى هذه البلاد.

4 ـ التنوع في الحياة إرادة ربانية قاهرة لم نخترها نحن ولم نكتشفها نحن ولكن علمناها القرآن الكريم في محكم تنزيله وتعلمها الناس بفقه الحياة وبالضرورة ويجب التواضع منا جميعا والإقرار بأننا قوم نضيق ضيقا كبيرا بقانون التنوع وناموس الإختلاف. نعترف بذلك علما وعقلا ونظرا وننوه به في ساعات اليسر أو عندما نكون في حالة سلطان وحكم وسعة أما عندما يجد الجد فإن أكثرنا يضيق بذلك ويعمل على تضييق حدوده. لو علم الناس أن ذلك كفيل بهدم الحضارات وتقهقر الثقافات وهو جرثومة النماء والنهضة والتقدم لكفاهم علما. التنوع في الحياة فكرا ودينا ومذهبا وغير ذلك إرادة ربانية مرادة والصبر عليها ضريبة من ضرائب الحياة الكثيرة والسعيد مع نفسه والوفي لأهله والعبقري فينا حقا هو من يعلم ذلك عقلا ويصبر عليه عملا وخاصة في ساعات العسر لا في ساعات اليسر وإكثار الكلام من ذلك.

5 ـ قيمة الصبر وخلق الوفاء والمقاومة وما إليهما هي أمور لا ينفع فيها الحديث كثيرا ولا يتعلمها المرء تعلما نظريا فحسب ولكن العبرة فيها هو بتحملها تحملا ماديا ونفسيا مباشرا. تلك فائدة من أكبر ما جنيت من تجربتي الصغيرة المتواضعة. قال عليه الصلاة والسلام مؤكدا ذلك :" إنما العلم بالتعلم وإنما الصبر بالتصبر ومن يتصبر يصبره الله وإنما الحلم بالتحلم ".أي أن القيم الأخلاقية لا ينفع معها الحديث كثيرا ولكن ينفع معها بأقدار كبيرة أن تزج بنفسك أو تزج بغيرك ممن تريد تعليمهم في ردهات الصبر والتصبر والمصابرة وهي آتية لا محالة بسبب أقدار الله الموارة الدوارة التي ما خلقنا أصلا إلا لتجري علينا ليعرف الصبور من الكذوب والشكور من المنوع. من أجود ما حفظت قالة للإمام علي كرم الله وجهه ورضي الله عنه :" إذا هبت أمرا فقع فيه فإن الوقوع فيه هو أهون عليك من الخوف منه ". حدث لي ذلك عندما سجنت لأول مرة وأضحت الأبواب من خلفي وأنا أدخل السجن لأول مرة توصد بقوة وجرس وصوت بابا من بعد باب حتى قلت لنفسي في غفلة من مراقبتي لربي سبحانه : أنى لي أن أخرج من هنا وهذه الأبواب توصد من خلفي بابا من بعد باب. أصابني كرب شديد ثم سرعان ما كر عليّ الليل والنهار وأصبحت أضحك وأطرب مع رفقاء السجن وكأننا في عرس لا في سجن. وكنت قبل ذلك بأيام قليلات أقول في نفسي في غفلة كذلك عن مراقبتي لربي سبحانه : أنى لهذا الولد أن يطعم من بعدي عندما أدخل السجن لا قدر الله. أنى له أن يسعد وأن يأكل ويشرب. سيموت جوعا بالحتم. تلك لحظات غفلة يشغب بها الشيطان علينا. فلما خرجت من السجن قالت لي أمي عليها رحمة الله سبحانه : طعمنا من بعدك يا بني ألذ طعام وشربنا أبهى شراب وهي تقصد ما يأتي به أهل الخير لبيتنا في غيبتي. والأمر ذاته عندما نفيت من البلاد وهجرت. خرجت باكيا تاركا من

خلفي زوجا وستة من الولد تنكفئ عليهم جميعا قصعة واحدة كما نقول نحن في جنوب هذه البلاد. وما هي إلا سنوات عجفاوات كالحات لا بد منها للإبتلاء والإختبار حتى حباني ربي بما لم يحبني به من قبل وحبيه لي كثير لا يضن ولا يبخل ولا يبخس وحبى أهلي من بعدي بما لم يحبهم به كذلك من قبل ونعماؤه علينا لا تعد ولا تحصى. عندما يبتليك ربك سبحانه هو نفسه من ينزل عليك طاقات من الصبر لا تنفد. ذلك هو شأن أكثر القيم الأخلاقية فيما أظن : لا ينفع تلقينها تلقينا نظريا جامدا جافا ولكن ينفع العيش بها ومعها وذلك عندما تأتي أقداره سبحانه لا يفتعل المرء ذلك إفتعالا.

6 ـ لم أعثر على كنز أعظم من كنز العلم في هذه الحياة. ذلك هو ربما أعظم كنز جنيته في تجربتي وحياتي وأنا أختم مخر عباب عقدها السادس وأتهيأ إلى العقد السابع إذا مد الله سبحاته في العمر والحياة. من وسائل طلب العلم هو المساهمة في الشأن العام للبلاد والبشرية إذ ليس العلم قمطرا تقرؤه فحسب ولكنه معافسة ومعايشة ومغالبة ومجاهدة. ومن ذا تنشأ الحكمة إذ الحكمة هي إجتماع النظري بالعملي كما يقولون. لا أعني العلم الديني الشرعي فحسب وإن كان جزء لا بد منه من ذلك لا مناص منه ولكن أعني أي علم يفتح العقل البشري على ملكات النظر والتدبر والتأمل والتفكر والإبصار. إذ ما تقدمت بلدان أهلها كافرون بالكلية إلا بالعلم. ذلك هو سؤال النهضة الأكبر أي النهضة الأولى وليس المقصود حركة النهضة. سؤال النهضة الأعظم هو : كيف تقدم غيرنا وهم غير مسلمين وتأخرنا نحن ونحن مسلمون. سؤال أفضى بكثير من شباب تونس والأمة العربية والإسلامية في سنوات الخمسينيات والستينيات والسبعينيات إلى الإلحاد والدهرية. ذلك أن السؤال صحيح ولكن الإجابة عندما تكون غير صحيحة يكون الإفضاء خاطئا. ذلك سؤال ما زال مطروحا عندنا اليوم وإن كانت مقاربات الإجابة الإيجابية الصحيحة غلبت ورجحت الإجابات الخاطئة. من أحسن ما أفدت من كلام الشيخ الغزالي عليه رحمة الله سبحانه قوله أنك إذا عثرت في حياتك على رجل ملحد يفكر فلا تغتم ولا تهتم فهو إلى الإيمان مهتد لا محالة بإذنه سبحانه أما إذا ظفرت في حياتك برجل مؤمن مثلك ولكنه لا يفكر فأغتم وإهتم فإن صاحبك قد يرتد أو لا يصيب في إيمانه خيرا و يكون على الحياة عالة ومما قيل كذلك أن من لم يضف إلى الحياة شيئا فهو زائد عنها وواجب الزائد هو التنحية.

7 ـ الإطلاع على تجارب الناس الآخرين أمر مهم جدا ومفيد جدا ومن ذلك أني إطلعت عن كثب قريب عن التجربة التركية إذ كانوا يقيمون شأنا كبيرا للشباب سيما في حزب الرفاه بقيادة المهندس المرحوم أربكان عليه رحمة الله سبحانه. كانوا يشيدون مؤسسات كبيرة خاصة بالشباب يربونهم هناك ويؤوونهم ويعلمونهم ويصرفون عليهم ويوفرون لهم الإمكانيات المتاحة كلها قدر الإمكان. كانوا يفكرون في المستقبل ومن يفكر في المستقبل ويخطط له ينجح

بإذنه سبحانه أما من يعيش لحظته فلا يهتم بما يليها فهو الذي لا يرجى منه عمل في قادم الأيام وقابل الليالي. تلك تجربة أعجبت بها كثيرا. كما أعجبت شديد الإعجاب بإنفتاح الأتراك سيما الإسلاميين منهم على تفكير غيرهم وخاصة فكر الغنوشي بل ربما إلى حد فيه من المغالاة الذي فيه. الذي يعنيني هنا هو الإنفتاح على تجارب الغير وكسبه وليس على كسب الغنوشي أو غيره. من ينفتح على غيره ويفيد من علمه وكسبه وتجربته يكسب كثيرا فهو يفكر بعقلين لا بعقل واحد ويضم إليه تجربتين لا تجربة واحدة. كما أعجبت بأمر آخر في التجربة التركية إذ كنت قريبا جدا من قياداتهم ومؤسساتهم ومجالسهم الداخلية بسبب مسؤوليتي. أعجبت بأمر عجيب وهو أنهم لا يفكرون في الرد العنيف على خصومهم الذين يكيدون لهم من منبر السلطة وصولجانها. لا يسرون بذلك إلى بعضهم البعض حتى في مجالسهم الخاصة وهي مؤتمنة. قصة العنف ملغية عندهم بالتمام والكمال. لا يعرفون سوى المقاومة السلمية المدنية. المعروف عندنا هو أن التركي يهم بيده قبل إستخدام عقله ولكن العكس هو الصحيح إذ ربما يصح ذلك أو جزء كبير منه على العربي لا على التركي. الأتراك قوم يكبرون العربي المسلم إلى حد مغال فيه حقا فهم يعاملوننا على أننا أحفاد محمد عليه الصلاة والسلام. يتمنى الواحد منهم لو أنه يعرف اللغة العربية ليفقه الوحي حق الفقه.

8 ـ أما ما أفدته من التجربة الألمانية فهو كثير ومن ذلك التنظيم الفدرالي إداريا وسياسيا لقارة مترامية الأطراف مثل دولة ألمانيا من بعد رأب صدعها في الثالث من جوان من عام 1990 أي ذكرى سقوط جدار برلين. وهو عيد الوحدة عندهم. قلت في نفسي مرات ومرات بألم وحرقة : ما الذي يجعل بلداننا العربية والإسلامية لا يزيدها الزمن إلا تفرقا وإنخراما فلا بد من سودانين بدل سودان واحد ولا بد من يمنين بدل يمن واحد وغير ذلك وما الذي يجعل ألمانيا تتوحد وأوربا تتوحد في العملة والإقتصاد ومقاومة الهجرة التي تسمى عندهم غير شرعية وأمور أخرى كثيرة توحدوا فيها وما زالوا يزحفون بقوتهم الإقتصادية تعزر قوتهم السياسية. هي مفارقة. تراثنا يحرضنا على التوحد والتجمع وتراثهم يحرضهم على التمزق والتفرق ولكن حاضرنا هنا هو ماضيهم أي تفرق وتمزق وحاضرهم هو ماضينا أي توحد وإجتماع. التجربة الفدرالية هناك منحت الناس في الولايات والمحافظات حقوقا أكبر وأوسع وجعلت الدولة تتفرغ لهموم أخرى كبيرة من مثل الإقتصاد والسياسة والعسكرية وغير ذلك. لا شك أن حسم الهوية عندهم ساهم في ذلك مساهمات كبيرة وبالغة إذ من يحسم هويته ينشغل بما هو ألح عليه ولكن عوامل أخرى عدا الهوية المحسومة كانت وراء ذلك النمط الإداري والسياسي الذي إخترعوه فضمن لهم مزيدا من الحريات الفردية ونماء وترتيبا جيدا لأولوياتهم. لا أتردد البتة حتى لو أبى التقليديون فينا من عبيد السلف أن أقول أن رائد التجربة الفدرالية إداريا وسياسيا هو النبي محمد عليه الصلاة والسلام وذلك في أول دستور سياسي موثق ومكتوب وهو المعروف في السيرة النبوية بصحيفة المدينة المنورة. ذاك موضوع لا أرب لي فيه الآن لأنه يخرج بنا عن مطلبنا الأم في هذا الكراس. من فوائد التنظيم الفدرالي كذلك هو معرفة الناس بعضهم لبعض عن قرب

ومحاسبة كسوبهم ورصد إنجازاتهم بما يتيح حسن إنتخابهم وتحميلهم مسؤولية جديدة أو إزاحتهم والإتيان بغيرهم وهو ما نفعله نحن أو يفترض فعله منا في الإنتخابات المحلية أو البلدية أو الولائية. حتى في الأرض التونسية فيما أرى يجدر بنا إجراء حوار جاد من أهل الذكر حول النظام الفدرالي هل يصلح بنا أم لا.

أما عن إنديا‌ح الحريات عندهم فحدث ولا حرج. لو عدت إلى إستذكار ما رأيت في هذه الخلاصات التي يجدر بها تجنب الإطناب لذكرت أن أول شيئ وقعت عليه عيناي وأنا أطأ بقدمي هاتين الأرض الألمانية هو مشهد لعدد من الشباب الألمان في الشارع يحملون قمصانا بيضاء كتب عليها من الخلف : هذا ثور. وتحت تلك الكلمة صورة للمستشار الألماني الأسبق هلموت كول الذي توحدت ألمانيا تحت حكمه وحكم حزبه الإتحاد المسيحي الديمقراطي. لم يكن ذلك كافيا بل حرص المعمل الذي لم يستأذن بطبيعة الحال لنسج تلك القمصان على تصوير الرجل وهو في حالة حكم على هيئة ثور بقرنين. رجل قاد البلاد لستة عشر عاما كاملة ولا ضير في تصويره من لدن المعامل ولا ضير على الألمان إقتناء تلك الملابس والتجول بها في شوارع المدن ولا يتعرضون لأي أذى. منذ تلك اللحظة عدلت بوصلة عقلي لأحسن فهم الواقع الجديد الذي أنا فيه. ولكن الحسرة ظلت تلازمني وستظل تلازمني إلى ما شاء الله سبحانه . حسرة كلما رأيت أمرا فينا قبيحا ويقابله أمر جميل عندهم . حسرة عنوانها : لم كانوا هم كذلك ولم كنا نحن على غير ذلك.

أمر آخر لكم أرجو أن تتقدم نحوه بلادي العزيزة تونس ورب الكعبة. أمر آخر لا زال يلح علي ولن يزال حتى يواريني قبري. أمر آخر إسمه أن ألمانيا دولة إجتماعية وهو أمر مثبت في الدستور نفسه. دولة إجتماعية ليس أمرا دبجوا به دستورهم نفاقا ولكن حققوا ذلك إذ تقوم الدولة على تأمين المعيشة الضرورية في حدها الأدنى مأكلا ومشربا وملبسا ومسكنا وغير ذلك من الحاجيات التي تحفظ كرامة الإنسان لكل إنسان يعيش فوق أرضها ويحمل بطاقة إقامة ولو ليوم واحد. أجل. ولو ليوم واحد ورب الكعبة. لكم أرجو أن تتقدم تونس الثورة إلى ذلك الإتجاه حتى نعمل جميعا متكافلين متعاونين على شطب مظاهر البؤس والحاجة والفاقة. الله وحده يعلم كم يؤذيني ذلك. لا يؤذيني في الحياة شيء ورب الكعبة سبحانه مثلما أتأذى وأنا أرى بعيني هاتين رجلا بائسا أو إمرأة بائسة لا تجد رغيف خبز تطفئ به ألم الجوع أو شربة ماء أو ملبسا واقيا لعورتها أو لولدها أو مسكنا يليق بكرامتها. لا أقول ذلك نفاقا ولا تزلفا ورب الكعبة. سيئاتي كثيرة وخطيرة وعظيمة وأعلمها حق العلم ولكن ليس منها قطعا إزدرائي لمثل تلك المظاهر.

مما حدث لي في ألمانيا أني طردت من عملي بينما كنت أعمل منظفا في شركة تنظيف شهيرة إسمها شركة " فافن شميت " ومقرها مدينة " لفركوزن " الشهيرة ربما بفريقها الرياضي. كنت عاملا نلت إعجاب رئيسة الشركة حتى أثنت عليّ مرات ومرات. ولكن حدث ما لم يكن في

الحسبان إذ أطردتني الشركة مخالفة قانون الشغل الألماني إذ وقع طردي وأنا في حالة إستمتاع برخصة سنوية مسبقة ومأذون فيها كتابيا. رفعت القضية إلى محام ألماني فرفع إبهامه في وجهي دلالة ألمانية على أن القضية مربوحة لا محالة. وجرت مسارات التقاضي ومثلت أمام القاضي مرتين أو ثلاثا برفقة المحامي وبعد زهاء شهرين حكم لي القاضي بغرامة مالية تجاوزت مرتبي الشهري بزهاء أربع مرات : مرة لأني مطرود وأنا في حالة عطلة سنوية مأذون فيها ومرة لأني طردت دون سابق إعلام وغير ذلك.

قلت في نفسي : أي عدل هذا. أنا المسلم العربي الأجنبي وفي وثائقي أني لاجئ سياسي من لون إسلامي محمول على الإرهاب يومها.أنا الرجل الأسود المهاجر والمنظف في حمامات الألمان ويحكم لي بكل ذلك وزيادة عن ذلك تحملت الشركة أعباء المحاكمة ماليا وكذا الأعباء المتعلقة بجهد المحامي. أليس ذلك هو العدل الذي من المفترض أن يكون في بلدي.

تقدم أبنائي بطلب الجنسية الألمانية فنالوا ذلك جميعا وطبق عليهم القانون الذي يطبق على أي طالب للجنسية إذ لم ينظر القضاء هناك أن هؤلاء أبناء لاجئ سياسي من لون إسلامي قد يكون حقنهم بحقنة التطرف والإرهاب.

ماذا أقص وما ذا أدع عن دولة ترى بأم عينيك كيف ترفرف فيها قيم العدل والحرية والكرامة عالية لا ينجو من العذاب من خالفها كائنا من كان. لا أعني أن عدالتهم هي العدالة الإسلامية المنشودة ولكن عدالتنا الإسلامية أمر نقرأ عنه في الكتب والمجلات ونسمع عنه في الخطب الرنانة أما في واقع الحياة فلا شيء غير ضد ذلك بالتمام والكمال.

كل ما أعنيه هو أنهم أحكموا الدنيا وما يتعلق بها من علم وكرامة وعدل ومعرفة ومساواة وحرية وإستقلال وهي شروط النهضة التي لا بد منها بل هي شروط صحة كما قال الفقهاء عن بعض العبادات. أين حظنا من شروط النهضة وهي شروط صحة لكل نهضة. صفر على الشمال كما يقال. ولكم يعجبني قول الشاعر : عرب نحن قال لي قلت كلا .. قال والمجد قلت ماض تولى.

الدنيا أحكموا قيادها ولذلك سادوا ولقياد الدنيا شروط لا بد منها. ونظامهم الديمقراطي الفدرالي الإجتماعي هو أقرب نظام إلى الإسلام. الإسلام يتميز عنه حتما وقطعا ولكن لنتواضع قليلا ثم لنقل إن ما وصلوا إليه معرضين عن تعليمات الدين وتوجيهات الإسلام هو قريب جدا من الإسلام وإن لم يصل إليه ولن يصل إليه قطعا ولنقل متواضعين أن ما لدنيا عيشا معيشا وواقعا راسخا هو أبعد ما يكون عن الإسلام في الشؤون العامة من عدل ودولة وحكم وحرية ومساواة وكرامة وعزة وإستقلال وغير ذلك من نماء ورغد عيش.

إما أن نفيء إلى ما عندنا من رصيد أو أن نقتبس ما عندهم أما الطريق الثالث أي لا فيئة إلى تراثنا ولا إقتباس من عندهم فهو الموت الزؤام الذي تحاول الثورات تحطيمه ولكن دون ذلك عقبات كأداء وأخرى أشد كأدا.

9 ـ آخر أمر أسجله هنا ـ والحصائل كثيرة لا أمل لي في الوصول إلى آخرها ـ هو أن مستقبل تونس مرتهن بأمور منها :

أ ـ مستقبل تونس في رأيي المتواضع وهو صحيح عندي حتى يثبت بالبرهان ضده هو في أمرين كبيرين أولهما إستئناف المشروع الزيتوني العظيم الثر الخصيب بما هو إنسكاب للعلم الإسلامي الجامع لا الديني الشرعي فحسب في عروق البلاد وشرايين العباد وذلك حتى تستعيد بلادنا ذكرها وتاريخها ومجدها بالمؤسسة ذاتها التي بنت لها ذات يوم مجدا سامقا مرتفعا. الأمر الثاني الذي يصنع مستقبل تونس في رأيي المتواضع هو إستئناف العمل بتكافل ومثابرة وصبر على درب تحقيق أهداف الثورة أي ثورة الحرية والكرامة المندلعة بين يومي 17 ديسمبر 2010 و 14 جانفي 2011. مستقبل تونس في رأيي بين ذينك الأمرين : الزيتونة وهي البنك التونسي المركزي للهوية العربية الإسلامية للبلاد وهي مطمور القيم الأخلاقية والعلمية التي لا سيادة لنا بدونها. والثورة التي أنقذت البلاد من الإستبداد والدكتاتورية والسلب والنهب والتصهين والإستعباد والإسترقاق لعائلة الطرابلسية والنهابة كلهم.

ب ـ مستقبل تونس كذلك من وجهة أخرى وزاوية أخرى مرتهن لشروط ثلاثة أخرى هي :

() ـ إعلاء مؤسسة المسجد بحسبانه مؤسسة مدنية تعبدية علمية دعوية جامعة يملكها كل تونسي وتونسية بغض النظر عن إنتمائه السياسي ولونه الفكري كلما فاء إليها مصليا أو زائرا أو متعلما أو عالما مسالما لا يحمل عصا ولا بارودا. والحديث عن الحياد المسجدي حديث في أصله صحيح ومطلوب ولكن تشغب عليه الإعتبارات السياسية. حياد المسجد معناه الحياد الحزبي لا الحياد السياسي. إذا ما تحول المسجد إلى مؤسسة لا يتحدث الناس فيها إلا عن الآخرة وعذاب القبر فقد حلت بنا الكارثة وتحولت المساجد بحق إلى كنائس ودير ومعابد مسيحية. المسجد هو خندق الثورة وهو خندق النماء ورغد العيش وهو خندق الحريات والكرامات والحقوق والحرمات وهو المصنع الذي يصنع الإنسان صناعة جديدة مركبة متعددة الأبعاد فيها الروحي والنفسي والعلمي والعقلي والذوقي والفردي والجماعي وغير ذلك. لا تحزب المساجد. نعم وألف ألف نعم . أما تحييدها عن مباشرة الشأن العام للبلاد وعن معالجة مشاكل الناس أين كان حقلها فذلك غير مطلوب بل هو عين الإنحطاط والتقهقر.

() ـ إعلاء شأن التكافل والتعاون والتآخي بيننا على أساس المساواة في المواطنة حقوقا وواجبات وليس على أي أساس آخر ولو كان أساسا دينيا إذ هناك تونسيون يهود وربما نصارى. القاعدة القاعدة هي أساس المواطنة وليس أي إعتبار آخر وليس ذلك قولا ميكافيليا تكتيكيا بل تلك هي قيم الإسلام في الدولة والحكم والمواطنة والإجتماع. ولا يكون ذلك بطبيعة الحال حتى نقدر قيم الحرية حق قدرها. لا يصلح أمرنا في تونس بغير ذلك التكافل منا جميعا

على ما إتفقنا عليه وما إتفقنا عليه كثير كثير ثم ليرتب كل واحد منا أمره الديني والذوقي والمعيشي والفكري على ما يريد هو لا يحده عن ذلك سوى حريات الآخرين وحرماتهم المصونة.

() ـ إعلاء شان التعاقد السياسي بيننا ونحن في مرحلة بناء دستور سياسي جامع يوحد كلمتنا في القضايا السيادية العليا والشؤون الكبرى. دستور يعلي من شأن هويتنا العربية الإسلامية ومن شأن حرياتنا وحرماتنا وكراماتنا ونظامنا الجمهوري بحسبانه كفيلا بتلك الحقوق والحريات والحرمات وبحسبانه ضامنا لإستقلال القضاء لضمان العدل الذي هو أساس العمران كما قال بحق الإمام إبن خلدون أبو الفقه الدستوري والإجتماع السياسي.

كلمة الختام

أجدد حمدي وثنائي لولي النعمة الأكبر سبحانه إذ بفضله دونت الذي دونت هنا كما أجدد شكري وإمتناني لطالبة الحقوق التونسية نبيلة بنت بومدين ضيف الله إذ كانت سببا مباشرا وسريعا لإستعادة جزء من الذاكرة أن تنخرها ناخرات الزمان التي لا تستأذن لدخول.

كما أؤكد أني لم أوف الموضوع حقه دون ريب إذ هو تاريخ يمتد لزهاء أربعين سنة كاملة من عمر هذه الحركة وعمري فيها اليوم سبعة وثلاثون عاما ونيف. فترة ليست قصيرة وليس لي أن أدون كل ما في الذاكرة بله ما نخرته الناخرات. ولذلك توسطت في الكتابة والتدوين فيما أحسب فلم أختصر إبتسارا ولم أسهب إطنابا. وللقارئ الكلمة الفصل في تقويم ذلك.

والحمد لله تعالى وحده في الأولى والآخرة فهو من بفضله تتم الصالحات وتقتحم المغالبات والمجاهدات والله أسأل سبحانه أن يمن على بلادنا تونس الحبيبة أن تعبر المرحلة الإنتقالية الراهنة بأمن وسلام وطمأنينة حتى تستقر الأوضاع ويتوحد شمل التونسيين وتجتمع كلمتهم وترسو سفينتهم ثم يبدأ الإصلاح متدرجا مستلهما تعاليم الإسلام الوسطي المعتدل المتوازن ومكاسب التاريخ وتجارب البشرية الكادحة وليس ذلك عليه سبحانه بعزيز.

وإن رياح الثورة لقادمة بحوله وحده سبحانه ولكن الثورة وليد يتعرض لما يتعرض له كل وليد من صعوبات فلنصبر على الثورة وأزيزها ومشاكلها وإذا كانت الثورة تجديدا لأحوالنا بالدين ـ أي الإسلام ـ بل هي تجديد للدين نفسه كما أرى ذلك .. إذا كانت الثورة حمالة العدل والمساواة والكرامة والعزة والإستقلال والنهضة والتقدم والإزدهار والرقي ورغد العيش ووحدة الأمة .. إذا كانت الثورة كذلك ـ وهي كذلك عندي قطعا ـ فلنصبر عليها بقدر صبرنا على الإستبداد والسلب والنهب والفساد في الأرض عقودا كالحات بل قرونا لاظيات.

لا ينهدم الباطل بالأحلام ولا بالأوامر والنواهي ولا بالأماني ولا حتى بالأدعية الخالصة الضارعة وحدها ولكن ينهدم الباطل بسنة هي :" ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما

كانوا يحذرون ". أي أن الله تعالى لا يخلع لفرعون عرشا إلا بمجاهدات منهم ومقاومات منهم.
من هم " منهم "؟ هم المجاهدون والمقاومون والمصلحون.

والله أعلم.

الهادي بريك ـ مدنين ـ تونس 28420944

brikhedi@yahoo.de